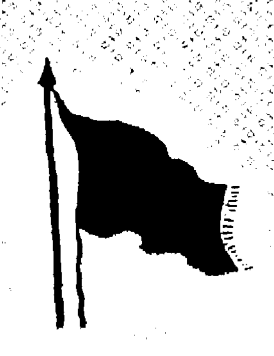
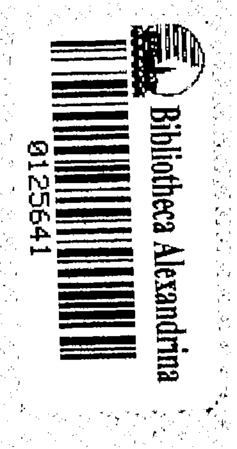
إبراهيم الابياري

قيام دولة









ثقافة وعلوم انسانية لكل الشعب



إبراهيم الابياري

الغلاف بريشة !

محمد حاكم

إهـــداء

الى الذين لا يأتمـــرون
بالـــرأى ، ولا يقضـــــون
بالشورى من الولاة والحاكمين
أهدى هذا الحديث .
علهم يعون ويتعظون ..

ابراهيم الابياري



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذا رابع أربعة من كتب فى الدعوة إلى الوحدة : وحدة الصف ، ووحدة الجهد ، ووحدة الفرح ، ووحدة الترح ، فى ظل رايتين خفاقتين : راية الدين ، وراية اللغة : وما ملكت مثلهما أمة إلا بزت أمماً ، وعلت شعوباً ، وأصبحت عزيزة الجانب مرهوبة .

قدمت فى الأول من هذه الكتب ، وهو كتاب مغيب دولة ، ما كان للجاهلية الأولى من أثر فى الفرقة ، ورثها المسلمون ، على الرغم من دعوة الإسلام إلى نبذ الخلاف .

وتكلمت فى الثانى ، وهو ميلاد دولة ، عما ثار من نزاع بين على وبنيه ، ومعاوية وبنيه ، مما كان له هو الآخر من أثر فى تشعب الكلمة وتطاحن الناس .

ثم تحدثت فى الثالث ، وهو نهاية المطاف ، عما جرى عليه الخلفاء الأمويون من رجعة إلى التراث ، وسعى

الهاشميين لإعادة حقهم المغصوب ، وما كان بين هذا وذاك من إراقة للدماء .

وهأنذا أعرض فى هذا الكتاب الرابع ، قيام دولة ، حال العباسيين مع الأمويين ، بعد أن آب الأمر اليهم ، وكيف كان أخذ العباسيين للأمويين قتلا وتنكيلا ، وحبساً وتشريداً ، يزكي هذا كله ، كما زكاه هناك ، غياب الشورى واختفاء الرأى .

وإن شر ما يكيد لأمة ، ويزعزع أركانها ، ويثير الفتن بين آحادها ، ويسرع فى زوالها ، أن تفقد الرأى الحر ، والمشورة الخالصة .

والله أسأل أن يجنبنا الإحن والترات ، وأن يلهمنا فى كل ما نأخذ به العمل بالرأى والاستئناس بالمشورة .

ابراهيم الابيارى

ربيع الاول ١٣٩٧ هـ

فبراير ١٩٧٧ م

(١)

على أطراف الشام ، وبالقرب من عمان ، تقع الحميمة ، وهى بلدة صغيرة كان يمر بها العابرون أن يعرج قبل أن ينزلها بنو العباس ، وقبل أن يتخذوها موطناً لهم . ونزلها بنو العباس فالتفتت إليها الأعين أيام بنى أمية ، أعين الراغبين من بنى العباس وأعين المتخوفين منهم ، يقصد إليها هؤلاء الراغبون خفية يأخذون عن العباسيين ويلقون إليهم ، ويقصد اليها المتخوفون من بنى العباس خفية هم الآخرون يتحسسون الأخبار ويعدون على الصاعدين اليها والهابطين منها حركاتهم وسكناتهم .

كان ذلك كله يجرى لا يحسه إلا نفر قليل ممن يعنيهم الأمر ، منهم جماعة من الأصدقاء الذين لا مشاركة لهم فى الحكم ، ومنهم جملة من الأعداء الذين بيدهم الحكم .

ولم يكن العباسيون حين ذاك أصحاب الأمر ، بل كانوا أعواناً لبنى عمهم عليه ، يشاركونهم فى الدعوة إليه ويشاركونهم فى هذا العبء ، عبء التنقص من الأمويين والتمدح بمآثر الهاشميين ، يريدون أن ينقضوا على الأمويين ملكهم ليخلو الجو أمام الهاشميين .

وما نظن العباسيين كانوا يريدونها للهاشميين خالصة ، بل كانوا يريدونها للهاشميين ولهم ، فما أبقت تلك المعارك التى دارت رحاها بين

الأمويين والهاشميين إلا قلة من الهاشميين ، ثم أتى بطش الأمويين حين تتبعوا الهاشميين على كثرة من هذه القلة ، وما بقى من هذه القلة من الهاشميين من هو جدير بهذه الأمانة غير أبى هاشم .

وكانت ليلة من ليالى عام تسع وتسعين من الهجرة ، حين نزل أبو هاشم على محمد بن على بن عبد الله بن عباس نزلته الأخيرة ، وكان أبو هاشم قبل أن يقصد إلى محمد بن على مر بسليمان بن عبد الملك ، فأكرم سليمان وفادة أبى هاشم وقضى حوائجه .

وما كان سليمان عرف قبل اليوم أبا هاشم ، وما كان أبو هاشم جلس قبل اليوم إلى سليمان . وكان سليمان يعرف أن أبا هاشم رأس المنافسين له ، وأنه كان رأس الدعاة الهاشميين ، وأنه لو أوتى من القوة شيئاً لأزاحه من مجلسه ليجلس هو مكانه .

وكان أبو هاشم يعلم أن سليمان يظهر له غير ما يبطن ، وأنه لولا اطمئنان قليل اليه ما أبقى عليه .

من أجل هذا رحب سليمان بأبى هاشم ليسبر ما عنده ، وقبل أبو هاشم أن ينزل بسليمان ليزيده اطمئناناً إلى اطمئنان . وكان سليمان رجلا فى الملك يخشى أن يفلت منه فكان أشد حيطة وأقرب إلى الغدر ، وكان أبو هاشم رجلا يسعى إلى الملك ، بين بأس وطمع ، ليس فى يده ما يخشى عليه ، من أجل ذلك لقى سليمان يبغى أمنه ولا يريد أذاه ، وكان ضعيفاً فى حضرة قوى ، فلم تحدثه نفسه بغدر .

ورأى سليمان من أبى هاشم ما حركه عليه ، وليس شىء يثير ما بين المتنافسين غير أن يبدو من أحدهما أنه يبز صاحبه ، هنا يحس المغلوب أنه منزوع منه أمره فيقوى ، ويحس أن منافسه سيملك الأمر دونه فيضل ويغوى .

ولقد أحس سليمان فى تلك الجلسة القصيرة ، التى جلس فيها اليه أبو هاشم، أن أبا هاشم ذا فضل فحقد عليه ، وأن أبا هاشم ذا علم فخاف أن يجذب الناس اليه بعلمه ، وخاف أن هذا الفضل وذاك العلم سوف يمكننان من شأن أبى هاشم، وسوف يهونان من شأنه هو ، فيخسر سليمان ويكسب أبو هاشم، وقد يكون ما يخسره سليمان هو الملك ، وقد يكون ما يكسبه أبو هاشم هو تمكين أهله من ذلك الملك ، وما فكر سليمان فى هذا طويلا حتى قر رأيه على ما يقر عليه رأى من هم فى مثل حاله ملكا وسلطانا ، فكما لم يعرف هؤلاء الملوك وأولئك السلاطين الموادة واللين مع من يحسون منهم شراً ومع من يخافون منافستهم ، كذلك لم يعرف سليمان الموادة واللين مع أبى هاشم، لا يملى عليه فكره ولكن يملى عليه هواه : وإذا ما كان الهوى والفكر كانت الغلبة للهوى على الفكر ، فالهوى طموح والفكر جموح ، والنفس إلى الانطلاق أشوق منها إلى الجمود .

من أجل ذلك لم يرع سليمان لأبى هاشم أنه ضيفه، ولم يرع له أنه فاضل عالم بر تقى ورع ، لم يذكر له شيئاً من هذا كله حين ذكر خوفه منه ، فدبر للخلاص منه تدبيراً يأكثر ما علمناه لمن يدبرون للخلاص ممن يخافونهم ظلماً وبهتاناً .

وكأن سليمان كانت فيه بقية من تحرج ، وبقية من تحرز ، وبقية من خوف، فهو لم يقتل ضيفه فى حضرته ، حتى لا يصاب فى تحرجه أو تحرزه ، وحتى لا يثير فى نفسه الخوف ، فما من شك أن قتل أبى هاشم كان سيصيب سليمان بشىء من الحرج ، حين يقال عنه

إنه قتل ضيفه ، وكان سبهدر ركناً من أركان دينه فيصاب فى تحرزه حين يقال عنه إنه قتل ضيفه ، وكان سبهدر ركناً من أركان دينه فيصاب فى تحرزه حين يقال عنه إنه قتل مسلماً فى غير ذنب ولا جريرة ؛ وكان ذلك لاشك سيقض عليه مضجعه ، لأن أبا هاشم لم يكن رجلا من هؤلاء الذين تذهب دماؤهم هباء .

لهذا كله فكر سليمان فى أن يخرج عنه ضيفه ليلقى حتفه بعيداً ، فيترك الناس على شك لا على يقين ، ويترك لنفسه الفرصة فى أن يدفع وينفى ، ويفرق بين أن تكون الجريرة فى ساحته فلا يؤخذ بها إلا هو ، وبين أن تكون الجريرة أبعد ما تكون عن ساحته فيكون هو واحداً من هؤلاء المتهمين ، وقد يكون بعيداً عمن يتهمون .

رأى هذا كله سليمان وهو مغرى بقتل أبى هاشم ، فنصب له رجلا على الطريق مخرجه من عنده ، وأوصى هذا الرجل بأن يستقبل أبا هاشم حين يمر به ويدعوه إلى طعامه كما يدعو المقيم عابراً لسبيل ، وما رد العابرون على الطريق إكرام المقيمين عليه ، ولا امتنع مسافر عن أن ينال من طعام حال ، لهذا ما رحب هذا الرجل بأبى هاشم حتى ارتاح له أبو هاشم ، وما قدم له قدحاً من اللبن قيرى حتى خفت اليها يد أبى هاشم ، وحتى صب هذا القدح فى جوفه صباً يظنه قدحاً من لبن خالص ، وما درى أنه صب فى جوفه قدحاً من سم يستره هذا اللبن ببياضه .

وما كاد أبو هاشم يشرب هذا القدح حتى أحس ألم السم يفرى أحشاءه ، وحتى أحس أنه ميت ، وحتى أحس أنه قد خدع ، وحتى أحس أن الذى خدعه سليمان ، وأن هذا الداعيه إلى قيرى أجيره ،

وكانت تلك الدعوة أمانة فى عنق الدعاة لا يكاد أحدهم يحس الموت حتى يسرع ليقلدها غيره من بعده من أهله ، ولم يكن أبو هاشم قد أعقب فيوصى بتلك الأمانة لابنه من بعده ، وكان يعلم أن فى الحميمة محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، وكان أبو هاشم يرى أنه أولى بهذه الأمانة ، من أجل ذلك خف اليه فنزل عليه وأعلمه أن هذا الأمر اليه وأوصى اليه بما أوصى ،

وعلم الشيعة بما كان من أبى هاشم ، وبما أوصى به أبو هاشم ، فإذا هم حول محمد بن على يبايعونه ، ويؤكدون الولاء له ، ويدعون الناس اليه ، وإذا محمد بن على بعد هذا صاحب هذه الدعوة يمهد لها وينظم أمرها ويجمع حوله رجالها ويرسم نهجها ،

(٢)

ونشط محمد بن علي يدعو ويوجه دعاته هنا وهناك ، فيتعرضون للأذى وهم صابرون ، لأنهم كانوا يؤمنون بما يحلمون ، وما نظن محمداً كان يرى أنه بالغ بالدعوة ما يريد ، بل كان يرى أن الأمر سيكون لمن بعده وأنه يمهد السبيل لغيره .

كان محمد يعلم هذا وكان يعلم أن صاحب هذا الأمر من بعده هو ابن له ، وكان محمد عندما تلقى الأمانة عن أبي هاشم له ولد يدعى ابراهيم ، وكان إبراهيم عندها يبلغ من العمر ما يقرب من ثمانية عشر عاماً ، ولكن محمداً لم يكن يرى إبراهيم صاحب هذا الأمر ، كان بعده داعياً من الدعاة وإماماً من الأئمة ، عليه ما عليهم ، ولكنه لشيء ما لم يكن يراه صاحب هذا الأمر .

ونكاد نفسر هذا الشيء بأنه نوع من الحذق ، ونوع من الدهاء والحيلة من محمد ، والدعاة لو لم يرزقوا حذقاً ودهاء لم يملكوا القلوب ، ولم يستولوا على الألباب : والويل لهم إن جرب الناس عليهم الفشل مرة فما أسرعهم عند ذاك الى الانفضاض من حولهم .

فلقد كان محمد يعرف نفسه ، ويعرف الدولة الأموية من حوله ، يعرف نفسه ويعرف الشيعة من حوله تجمعهم اليه الرغبة فيه ،

ويفرقهم عنه الخوف من السلطان، يمولونه ولا يمولهم هو، على العكس من جند السلطان الذين كانت تجمعهم على السلطان الرغبة فى ماله والخوف من عقابه، فكان محمد ضعيفاً أشبه بالقوى، وكان السلطان قوياً ذا باع فى الأقوياء طويل، على هذا كان محمد يعرف نفسه، ويعرف سلطان الأمويين، يعرف أنه يدعو ليمهد لمن بعده لا لنفسه، وما يريد أن يرخى فى الأمد للناس فيملوا الالتفاف حوله، وما يريد أن يقصر فى الأمد للناس فيتفرقوا عنه حين يبين لهم خلاف ما قال .

من أجل ذلك لم يجعل صاحب الأمر ابنه إبراهيم، لأنه كان يعلم أن الشوط لا يزال بعيداً، وكان يخاف أن يمتد الشوط فيطوى إبراهيم دون أن يظفر بالأمر فيضجر الناس ولا يؤمنوا بالدعوة، لهذا عدل محمد عن إبراهيم، ولم يرد حين عدل عن ابراهيم أن تخرج هذه الدعوة عن ولده، ولكنه كان يبغى ولداً لما يولد بعد، يجعله هو صاحب هذه الدعوة فيعطى لنفسه ولهذا الوليد الذى سيولد بعد فرصة واسعة يتمكن فيها دعاته من بث الدعوة، ويكون الزمن قد أضعف من سلطان الأمويين إضعافاً يمكن لسقوطهم، ويمكن للعباسيين أن يحلوا مكانهم، وكأن محمداً قد رأى شيئاً من هذا وذاك فعدل بالدعوة عن إبراهيم ليجعلها لولده عبد الله .

وما كاد هذا الوليد يدخل إلى الحياة حتى كاد يزيد بن عبد الملك يخرج من الحياة، بعد مرض أضناه، ويخلف دولة تتهيأ للزوال وتتعرض للفتن، فقد خلف من ورائه هشاماً أخاه والوليد ابنه يتنازعان الملك .

لهذا شيعته وللذاك أنصاره يكيد هذا لذاك ويكيد ذاك هذا ، إلى أن تألب الناس على الأمويين جميعاً فأزالوا دولتهم .

ما كان هذا كله يغيب عن محمد بن على بل رآه جلياً واضحاً مع مولد ابنه عبد الله ، من أجل ذلك كان محمد لبقاً حين جعل عبد الله صاحب الدعوة ، وكان فطناً حين اختار الوليد لهذه الدعوة ، فالناس تجذبهم إلى الرضيع عاطفة .

(٣)

وفى سنة أربع ومائة ، وفى شهر ربيع الآخر منها ، كان مولد أبى العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، الذى لقب فيما بعد « بالسفاح » .

ويمضى خمسة عشر يوماً على مولده فيفد على أبيه محمد بن على لفر من الشيعة وعلى رأسهم أبو محمد الصادق ، فيخرج إليهم محمد بن على ابنه أبا العباس فى خرقة ، وهو يقول لهم : هذا صاحبكم الذى يتم الأمر على يديه .

وما يكاد يسمعها هؤلاء النفر حتى التفوا بالوليد يقبلون أطرافه ، ولكن محمد بن على ما كاد يضمن قلوب هؤلاء الشيعة على المحبة لابنه حتى أراد أن يضمنها على الكراهية لخصومه ، فهو يعلم أن حبهم لابنه لن يضمن له الملك إلا إذا ضمنهم هو مع هذا الحب على عداوة للأمويين لا تفتر ولا تلين .

لهذا لم يكد يظفر منهم بالأولى حتى التفت إليهم يحركهم إلى الثانية ، وإن أيديهم لا تزال خدرة بما مست ، وإن شفاههم لا تزال ندية بما قبلت ، وإن عيونهم لا تزال شاخصة إلى صاحبهم الذى سيتم الأمر على يديه ، التفت إليهم وهم على هذه الحال لم ينفضوا يداً ،

ولم تجف لهم شفة ، ولم يتحول منهم طرف ، وهو يقول : والله لا يتمن هذا الأمر حتى تدركوا ثأركم من عدوكم .

وهكذا كان محمد لبقاً أشد اللباقة ، فطناً أبعد الفطنة ، حين فتح القلوب يملؤها حباً ، وحين فتحها يملؤها بغضاً .

وكأنى به قد أدرك أن الأيام قد لا تسعفه بما ينشد ، وخاف أن يمضى هو بيد الأمويين ، أو يقضى بيد الدهر ، فيفت ذلك فى عزم أنصاره ، ويخرج الأمر عن العباسيين إلى أهله من الهاشميين ، وكانت لا تزال منهم بقية .

ولكن هناك شيئاً قد ذكرناه قبل ، وهو أن محمدا كان له ابن آخر سبق أبا العباس إلى الوجود ، وكان عند مولد أبى العباس فتى قد جاوز العشرين من عمره بقليل ، هو إبراهيم .

وما نظن أن كلمة محمد — لو صحت عنه — تمضى بسلام ولا يحقد لها الابن الأكبر .

وما نظن محمداً كان يجهل أنه سيثيرها إحنة بين الأخوين ويقسم الشيعة بينهما فئتين . وما نظن الطالبين لهذا الأمر من العباسيين ، ومنهم إبراهيم ، قد برئت نفوسهم من دنس الحياة ، وخلصت قلوبهم مما لم تخلص منه قلوب الناس ، من طمع مغر وشهوة جامحة .

وما نظن داعياً يسخو بما يسخو به من جهاد فى سبيل الدعوة ، وهو يعلم أنه مأجور لغيره يهيء له ملكاً ويؤسس عزاً .

قد تسخو بمثلها نفس الأب ، ولمثلها بعمل الآباء ، ولكنها لا تسخو بها نفس الأخ ، وما لمثلها بعمل الأشقاء .

ولقد مات محمد بن على ، وما نعرف أنه أوصى مع موته لأبى العباس ، ولكنه أوصى لإبراهيم ، ولقد وجه إبراهيم بهذه الوصية رسوله بكير بن ماهان الى مرو ، فلقى بكير النقباء والدعاة ونعى اليهم محمد بن على ودعاهم إلى إبراهيم ، بعد أن دفع إليهم كتابه يحمل وصية أبيه به ، فقبلوه وأعطوه ما اجتمع عندهم من نفقات الشيعة ، فحملها بكير ليقدم بها على إبراهيم .

ولقد عاش إبراهيم يصدر الدعاة عن رأيه ، ويلتفون حوله ، ويستمعون له ، ثم ينفضون عنه بأمره وما يشير به ، وينتشرون فى البلاد يدعون له ولا يدعون لأخيه أبى العباس .

حتى إذا ما قبض الخليفة الأموى مروان على إبراهيم ، وظن إبراهيم أنه ملاق ربه ، نعى نفسه إلى أهل بيته ، وأوصى إلى أخيه أبى العباس ، وجعله الخليفة من بعده .

وكان إبراهيم ثانى اثنين من الأئمة العباسيين ، الذين رأوا الأمر لهم جميعاً ، كما رآه كل واحد منهم لنفسه .

سعوا له جميعاً حتى لا يخرج من هذا البيت ، وسعى له كل واحد منهم حتى يكون له دون غيره من هذا البيت .

من أجل هذا حمل كل واحد منهم عبئه يرى الأمر له أولا ، ولمن بعده ثانياً ، يمضى فيه الى آخر المطاف غير وان ، حتى إذا ما أدرك أنه مختطف عهد به الى من يليه ، لايؤثر بعيداً على قريب ، ولا يقدم له صغيراً على كبير .

فهو يعلم أنه إن فعل سوف يثير فتنة بين أصحاب الحق ، سوف تتبعها فتنة أعنف بين المناصرين على هذا الحق .

لهذا مضى العهد بين هؤلاء الأئمة — فيما نعلم — على ترتيبه ، عهد محمد الى ابنه الأكبر إبراهيم ، ثم عهد إبراهيم إلى أخيه أبى العباس ، وكان أن قضى الله على يد أبى العباس ما لم يقض على يد أبيه وأخيه من قبل ، وكتب له أن يكون صاحب هذا الأمر .

ولكن الرواة — أو الدعاة إلى هذه الدعوة — أبوا إلا أن يخرجوا بهذه الدعوة عن طبيعتها السياسية إلى صفة دينية .

وأبوا ألا أن يضيفوا اليها هذه الإرهاصات ليمكنوا لها فى قلوب الشيعة أولا ، وفى قلوب غير الشيعة ثانياً .

ومن أجل هذا أضافوا ذلك الذى أضافوه إلى محمد بن على فى ابنه أبى العباس حين ولد .

ومن أجل هذا عزوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أعلم العباس بن عبد المطلب أن الخلافة تؤول إلى ولده .

ومن أجل هذا عزوا إلى أبى هاشم بن الحنفية أنه حين لقى محمد بن على بالشام ، ونزل له عن حقه قال : إن هذا الأمر الذى يرتجيه الناس فيكم .

ومن أجل هذا اصطنعوا قصة أخرى لا أحب أن أغيبها عنك ، كما لم يحب المؤرخون أن يغيبوها عنا .

فقد قالوا : إن الخليفة الأموى مروان وجد موصوفاً عنده

فى بعض الكتب صفة هذا الخارج عليهم الذى سيكون زوال ملكهم على يديه ، فجد يتعقبه .

ويأخذ الرواة فى القصة فيذكرون أن مروان استدعى رسولا له أميناً وذكر له تلك الصفة التى يجدها .

وكأنى بمروان لم يكن رأى إبراهيم ولم يكن يعرفه ، هكذا أراد الرواة ليستقيم لهم جانب من القصة .

فلقد زعموا أن مروان بعد أن بين لرسوله تلك الصفة وجهه للقبض على إبراهيم ، إذ كان هو داعى الوقت ونقيبه .

وكما لم ير مروان إبراهيم كذلك لم ير الرسول إبراهيم ، وهكذا أراد الرواة هذا أيضاً ليستقيم لهم الجانب الآخر من القصة .

فلقد ذكروا أن هذا الرسول حين أخذ إبراهيم وانطلق به إلى مروان ، قال له مروان : ليست هذه الصفة التى وصفت لك .

فيقول له الرسول : قد رأينا الصفة التى وصفت — وهو يعنى أنه رأى أبا العباس مع أخيه إبراهيم حين قبض عليه — وإنما سميت إبراهيم ، فهذا إبراهيم .

ويأمر مروان بإبراهيم فيحبس ليقتل ، ويرسل رسوله مرة ثانية فى إثر أبى العباس ، فلا يقع عليه .

وهكذا اصطنع العباسيون هذا الذى اصطنعوه ليمهدوا لأنفسهم ، ويجعلوا الأمر لهم من دون أولاد عمومتهم الهاشميين ، فأضافوا

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً قاله للعباس ، وأضافوا إلى أبي هاشم بن الحنفية شيئاً قاله لمحمد بن علي .

ثم اصطنع الشيعة الموالون لأبي العباس شيئاً آخر ، فأضافوا إلى أبيه محمد بن علي كلاماً قاله مع مولده ، كما زيفوا هذه القصة التي حملوها مروان .

وهم في كلتيهما يقصدون الى جمع الأمر لأبي العباس ، ورد منافسيه عن هذا الحق .

فأنت ترى معي أن شيئاً من هذا وضع أولا والدعوة إلى العباسيين في أولها ، أعني هذا الذي عزاه العباسيون ودعاتهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا الذي عزوه إلى أبي هاشم .

وأن شيئاً من هذا وضع آخراً حين أوشك الأمر أن يستقيم لأبي العباس ، أو بعد أن استقام الأمر لأبي العباس ، أعني هذا الذي تقولوه على لسان الأب ، ثم هذا الذي حملوه مروان .

ولقد كان الناس حديثي عهد بتحرر فلم يكدوا أذهانهم ، وكانوا بين يدي فتن في الرأي عاصفة فاستكانوا لما تعيش عليه النفوس المكدودة الممتحنة من أحاديث موصولة بالدين ، وهي دخيلة على الدين .

وهكذا عاشت تلك الدعوات تعرف طريقها إلى القلوب فتلح عليها ، لا تدخر شيئاً يحركها الا اصطنعته ، لا تبالي على أي لسان وضعته ، يشجعهم على ذلك أن الناس من حولهم قد نامت عقولهم واستيقظت قلوبهم .

(٤)

وما استقام الأمر لأبى العباس واستوى من تحته الملك حتى انبسطت يده فى التنكيل ببنى أمية .

ولقد كان هؤلاء السادة فى جاهليتهم على أطماع محدودة وشر صغير ، فإذا هم مع إسلامهم قد خرجوا عن ذاك الطمع المحدود إلى طمع لا تنضم عليه حدود ، واستحال هذا الشر الصغير إلى شر كبير .

كانوا فى جاهليتهم يذكرون وشائج القربى والرحم فيمسكون شيئاً ما ، وإذا هم مع إسلامهم ينسون وشائج القربى والرحم فيسرفون شيئاً ما .

وكانوا فى جاهليتهم بين يدى دنيا ضيقة لا تنضم على جاه عريض ، ولا ملك كبير : فكان التنافس الذى يجر الى الحقد ، والتنابذ الذى يمليه هذا الحقد ، ضيقاً هو الآخر ، وإذا هم مع إسلامهم بين يدى دنيا واسعة تنضم على جاه عريض وملك كبير ، فكان هذا التنافس الذى يجر إلى الحقد ، وذلك التنابذ الذى يمليه هذا الحقد ، عريضاً هو الآخر .

وعاشوا لم يردهم الإسلام إلى رقته ورحمته وعدله ، لأنهم

قد أنسوا الإسلام برقته ورحمته وعدله ، وذكروا الدنيا بقسوتها وبغضها وظلمها .

والشعب كان غير بعيد من هؤلاء وهؤلاء ، ولأنه عاش مقتسما بين هؤلاء وهؤلاء، فأنسى هو الآخر دينه برقته ورحمته وعدله ، وانغمس فى دنيا هؤلاء بأطماعها وأهوائها وفتنها .

وهكذا أفسد هذا التنافس على الأمويين والعباسيين حياتهم ، كما أفسد على الناس من حولهم حياتهم .

فما إن قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية حتى أخذت بناته ونساؤه فسيرن إلى صالح بن على بن عبد الله بن العباس .

وكما كان صالح عما لأبى العباس كان عماً لهؤلاء البنات وتلك النسوة ، على قرب وبعد فى العمومة .

ولكن القربى الواصلة أصبحت قربى فاصلة ، ومن قبل هذا كان يُذكَّر بها الأعمام فيعطفون ، فاذا هى تذكر لهم فيحقدون .

اتجهت كبرى بنات مروان إلى صالح تذكر له تلك القرابة، عله يرق ويلين، وهى تقول له : حفظ الله لك من أمرك ماتحب حفظه ، نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمك ، فليسعنا من عفوكم ما وسعكم من جورنا .

تقول هذا لصالح وهى تظن أن القلوب قد تلين حين تبلغ ما تتمنى ، وأن النفوس قد تطهرها حلاوة النصر من مرارة الوتر .

وما علمت كبرى بنات مروان أن تلك النفوس التى اطمأنت إلى دنياها تَرَدَّدَ اليها لم تهدأ بعد عن تلك التراث التى روعت بها، وأن هذا القلوب التى سكنت إلى حقها تظفر به لم تسكن عن التأثر لتلك الدماء التى أريقت وتلك الأرواح التى أزهقت .

ومتى كانت دنيا الناس على هذا الوجه الذى خالته كبرى بنات مروان، ينسى فيها الموتور وتره إن غلب ، ويرتد المظلوم إلى العفو والصفح إن قدر ؟

ثار هذا الماضى كله الحافل بمآسيه فى نفس صالح بن على ، فإذا هو ينسى به ما حاولت أن تذكره إياه كبرى بنات مروان ، وإذا هو يقول لها :

والله لا أستبقى منكم أحداً ، ألم يقتل أبوك ابن أخى إبراهيم الإمام ؟ ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد ويصلبه فى خراسان ؟ ألم يقتل ابن زياد الدعى مسلم بن عقيل ؟ ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن على وأهل بيته ؟ ألم يخرج إليه بحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا فوقفهن موقف السبي ؟ ألم يحمل رأس الحسين وقد قرع دماغه ؟

فما الذى يحملنى على الإبقاء عليكن ؟

وهكذا مثل هذا كله لصالح بن على فأنسى الدنيا التى نالها والحق الذى ظفر به ، وعاد لا يذكر إلا أنه موتور ، وها هى ذى الدنيا قد أمكنته ، وهو الملوم إن لم يقتل ويسفك ويسبي ،

ولكن كبرى بنات مروان على هذا كانت مشفقة من الموت متعلقة بأسباب الحياة ، فيلين هذا الإشفاق من كبريائها ، ويمد هذا التعلق بالحياة فى خيط رجائها ، فإذا هى تقول لصالح : فليسعنا عفوكم .

وما ندرى كيف ارتد صالح عن عنف إلى لين ، ومن طيش إلى حلم .

وما ذكرته كبرى بنات مروان أخيراً إلا بهذا العفو الذى طلبته منه أولا .

ولعل الرواة قد أنسوا شيئاً لم يذكروه ، ولعل هذا الشيء الذى أنسوه كان مما يصحب الاسترحام من بكاء .

أكاد أظن أن كبرى بنات مروان أسرفت فى الاسترحام ، وجادت معه عيناها بدموع كثيرة .

وأكاد أظن أن قلب صالح الذى ذكر هؤلاء الذاهبين من أهله فوجد عليهم تحرك لدموع تلك الفتاة المهيضة ، ودموع كثيرة ن فتيات مثلها وحولها ونساء ، فرق وكان شيخاً تغلبه الرحمة ، ويرتد إلى اللين مع أول داع .

وأكاد أظن أن كبرى بنات مروان كانت تتسم بخلق وسيم يزكى فيها هذا الخلق الوادع الرحيم .

وأكاد أظن أن هذه الأخيرة هى التى جعلت الشيخ يسمح ، وجعلته يستجيب إلى العفو ، وجعلته يغرق فى هذا العفو فيقول : أما هذا فنعم — وهو يعنى العفو — وإن أحببت زوجتك ابنى الفضل .

ولكن كبرى بنات مروان كانت على هذا أبية لم تكد ترتد إليها حياتها حتى ارتدت إليها صفاتها ، ولقد كرهت أن تساق إلى المضل سوق المقهورات ، فيقال عنها إنها اشترت الحياة بهذا الزواج ، وإن كان لا غبن فيه عليها ، وقد أحست معه إن هي قبلت بغصة القهر ، وغصة أشبه بغصة السبي .

ولو أنها استملت نفسها لأحست بغصة أخرى ، أصدرت عنها دون وعى ، فهى لا تزال أموية ولا يزال غالبها عباسياً ، وهى لا تزال على وتر ولا يزال غالبها على وتر مثله ، وان بدا عافياً ، والدنيا أمام هؤلاء وهؤلاء ممتدة ، وكما تعطى تأخذ ، وكما تجعل العز إلى هوان تجعل الهوان إلى عز ، فما بالها لاتصبر للحياة كما صبر لها المنكوبون غيرها.

ومن أجل هذا لم تسرع إلى جواب صالح فيما عرض بعد العفو ، وارتدت عنه فى رفق وهى تقول : وأى عز خير من هذا ، بل تلحقنا بحَرَّان .

وهكذا خرجت كبرى بنات مروان بمن معها من هذه المحنة سالمة ، لم تخسر حياتها ولم تخسر كبرياءها ، وإن كانت قد خسرت مع هذه الثانية شيئاً بذلته هينة ، وهو دموعها ، حتى أسمح صالح وعفا .

ولكن الأمويين لم يكونوا كلهم على حال كبرى بنات مروان ، ولم يكن العباسيون كلهم على حال صالح بن على .

وجرت الأمور لا تديرها رحمة ، ولا يحركها حلم ، ولا يمليها غير منطق واحد هو منطق الوتر والانتقام .

(٥)

وما عرف الناس أبا العباس عبد الله بن محمد بن على ، منذ ولد إلى أن آل اليه الأمر ، بغير اسمه وكنيته ، يعرفون أن صاحبهم اسمه عبد الله ، ويعرفون أن صاحبهم يكنى أبا العباس ، ينادونه باسمه مرة ، وينادونه بكنيته مرة أخرى ، وقد يجمعون بين الاثنين .

فاذا الزمن يضيف إلى أبى العباس عبد الله بن محمد بن على شيئاً ليس له باسم ولا كنية ، وإنما هو لقب أفاده ، أفادته إياه أعماله حين أصبح خليفة ، وأفادته إياه غلظته حين ملك ناصية الأمر ، وأفاده إياه تعطشه للدم حين أصبح ولى هذا الدم .

وإذا أبو العباس عبد الله بن محمد بن على يلقب بالسفاح ، يعرفه الناس به ولا يكادون يذكرونه بغيره ، ولم تعد كنيته تغنى شيئاً ، كما لم يعد اسمه يغنى شيئاً .

وما أفاد أبو العباس لقبه السفاح عن زور وبهتان ، ولا أضافه الناس اليه متجنين أو غالين ، ولكنه أفاده عن إسرافه فى سفك الدم ، لا يضبطه عقل ، ولا يوجهه عدل ، وأضافه اليه الناس ينطقهم به شطط هذا الرجل ، ويوحى إليهم به إسرافه .

وما عرفنا أبا العباس عاصر تلك المآسى الدامية كلها التى ترق فيها أهله ، ولا وقعت عينه على تلك المحن القاسية أجمع التى ابتلى بها قومه .

ولكنه من غير شك أدرك منها شيئاً يدل على غيره !

أدرك منها مقتل زيد بن على بن الحسين على يدى هشام بن عبد الملك ، والتنكيل به صلباً وإحراقاً .

وأدرك منها مقتل يحيى بن زيد على يدى الوليد بن يزيد ، والتمثيل به صلباً .

وأدرك السعى فى إثر أخيه إبراهيم ، والقبض عليه وإيداعه السجن ليموت فيه .

وأدرك هذا الإرهاب الذى بسطه الأمويون على العباسيين ، وبنى عمهم من الهاشميين ، يعدون عليهم سكناتهم وحركاتهم .

ثم هو مع هذا الذى أدرك قد سمع الكثير مما لم ير ، سمعه على ألسن الدعاة حديثاً مروعاً فيه حق وفيه تهويل ، يتلونه على الناس حين يصبحون وحين يمسون ، ويملئون به النفوس نقمة ، ويحشون به الصدور غيظاً ، وينتزعون به من القلوب رفقاً ورحمة .

وهكذا شب أبو العباس مغيظاً محنقاً موتوراً ، قد أنسى الرفق والرحمة ، حتى إذا ما ملك زاده هذا الملك قسوة ، ومكن ليديه أن تنطلقا فى خصومه بعد كبح ، وللسانه أن يأمر فيهم بعد حبسة .

يدخل عليه سديف الشاعر ، وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك ، بعد أن استعطفه فعطف ، وبعد أن استرحمه فرحم ، وبعد أن استرقه فرق له ، وهو إلى جانبه آمن وادع مطمئن .

فما هو إلا أن يحركه سديف ببيتين من الشعر أنسى بهما أبو العباس عطفه الذى أباح ، ورحمته التى أتاح ، ورفقه الذى اليه استراح ، وإذا هو غادر بهذا كله ، ناقض لهذا كله ، خارج على هذا كله .

يقول له سديف :

لا يغُرَّنْك ما ترى مِن رِجالٍ   إن تحت الضُّلوع دَاءً دَوِيًّا

فضَع السَّيفَ وارْفَع السَّوْط حتى   لاتَرى فوق ظَهرها أمويًّا

فإذا أبو العباس ، العاطف الراحم الرقيق ، السفاح الغليظ القاسى الجانى ، وإذا يداه اللتان انبسطتا لإيناس ضيفه تمتدان لقتله .

هذا لأن النفس الباغية العاتية كانت هى النفس التى نشأ عليها ، وكانت تلك النفس الرادعة الوادعة هى النفس التى لم ينشأ عليها ، فما إن أتيح لأبى العباس أن يتصل بنفسه التى نشأ عليها حتى بعد عن نفسه التى لم ينشأ عليها .

(٦)

ويجتمع لأبي العباس السفاح مجلسه يوماً ، وما ظنه يوماً أبعد كثيراً عن صيرورة الأمر إليه ، وقد جلس أبو العباس على سريره ، وبنو هاشم دونه على الكراسي ، وبنو أمية دونهم على الوسائد .

وما هكذا كان الأمويون ، أيام كانت الدولة لهم يضعون الهاشميين ، فلقد كانوا يجلسون هم والخلفاء منهم على السرير ، ويجلس بنو هاشم على الكراسي .

ولكن أبا العباس شاء أن يجعل السرير له وحده ، وشاء أن يضع الناس على هذه المنازل ، وأن يجعل المنزلة الدنيا لبني أمية ، يرفع فوقهم الهاشميين ، ويرفع هو نفسه فوق الهاشميين ، وقد كان يستطيع أن يجمعهم جميعاً على منزلة واحدة ، بعد أن يرفع هو نفسه ، فيضم القلوب على ألفة .

ولكن كما فعل الأمويون من قبل بالهاشميين يفعل هو اليوم بالأمويين ، ويفعل شيئاً مثله بالهاشميين ، يريد أن يباعد بينه وبين الهاشميين في المجالس حتى لا تشرئب أعناقهم اليه ، وحتى لا يكون لهم فيه مطمع ، ويريد أن يباعد بين الأمويين والهاشميين حتى يضمن الفرقة بين الاثنين أولا ، فلا يجتمع مغلوبان على حقهما ، ويريد

أن يحط من قدر الأمويين ثانياً فيشفى شيئاً فى نفسه فيراح ، ويشفى شيئاً فى نفس الهاشميين فيكسبهم على مودته ، ويضمنهم على بُعد لا يجتمعان معه ، وما نحب أن نثير على أبى العباس هذه فما أهونها حين تثار .

وعلى أية صورة جمع أبو العباس الهاشميين والأمويين حوله فهو مشكور مأجور ، مشكور بلسان المحبين للأمن الراغبين فيه ، الذين يؤثرون أن يروا الأمة على وحدة جامعة لا صخب ولا شغب ، مأجور على لسان المنكوبين بتلك الفتن ، المبتلين بها ، الذين يؤثرون أن يروا الأمة على شمل مجموع لا هيط ولا ميط .

وما أحسب هذا المجلس انضم الا وقد انضمت قلوب الناس معه على فرحة وهدأة ، غير قلوب نفر انطوت نفوسهم على إحن مفسدة ، أو أغراض مغرية ، فهى لا تطمئن للأمن يسود ولكنها تنزعج له ، كما لا تغتبط بالأحوال تستقر ولكنها تساء لها ، وكان من هؤلاء النفر القليلين شاعرنا سديف هذا الذى أغرى منذ حين قريب أبا العباس بضيفه ، ولقد اقتحم سديف على أبى العباس مجلسه الأمين فأفسده عليه .

ولكن أبا العباس كان رجلا غدرة ، فيما أعلم ، كان لا يلبث أن يلم بالخير حتى ينخلع عنه ، كانت له نفس ساكنة وادعة ، ولكنها عاجزة ضعيفة ، وكانت له نفس ثائرة باطشة ولكنها قوية عاتية .

ولكنه على كل حال كان ينسى شره الكثير بخيره القليل حيناً قليلا ، ثم لا يلبث أن ينسى خيره القليل بشره الكثير حيناً طويلا .

وكأنى به لم يجنح للسلم إلا عن فترة وونى . وما أقل ما كان يحس تلك الفترة وهذا الونى ، ثم كأنى به لم يلم بالعنف إلا عن طبع يزكيه إرث ثقيل لم تستطع نفسه أن تخلص منه ، لهذا كان شره أغلب ، وعنفه أكثر ، وغدره حاضراً .

وهكذا ما دخل عليه سديف حتى دخل على نفسه هذا الشر الكثير الذي كان قد خرج منه ، وإذا هو ينسى الناس سديف ، وينسى خيره بشر سديف ، وإذا هو يقبل عليه يستمع منه ويجمع شتات نفسه الشريرة ، ويشتت شمل نفسه الخيرة .

ويحس سديف إقبال أبي العباس عليه ، ويحس توثب الشر بين عينيه : فيمضي يقول :

لاتُقيلنّ عَبْدَ شَمْسٍ عِثَارًا واقْطَعَنْ كُلَّ رِقْلَةٍ وغِرَاسِ (١)

خَوْفُهمْ أظهر التَوَدُّدَ مِنهم وبهمْ مِنْكُمُ كَحزِّ المَوَاسِي

أَقْصِهِمْ أيها الخليفةُ واحْسِمْ عَنْكَ بالسَيفِ شَأفَةَ الإرْجاسِ

واذْكُرَنْ مَصرع الحُسين وزَيْد وقَتِيل بِجانِب المِهْرَاسِ (٢)

فلقد ساءَنِي وسَاءَ سَوَائِي قُرْبُهم مِنَ نَمَارِق وكَرَاسِي

(١) الرقلة : النخلة الطويلة .

(٢) المهراس : ماء بأحد ، وعنده قتل حمزة بن عبد المطلب . وكان قائد الكفار أبو سفيان بن حرب .

وما يكاد أبو العباس يسمع لسديف حتى ينمحى بشره ليحل محله عبوسه ، وحتى تأخذه رعدة الغضب ، ويقبل على هؤلاء ، الذين كانوا منذ حين قريب موضع إيناسه وترحيبه ، ليكيل لهم اللعنات ، ويسبهم أقذع سباب ، فيقول لهم : يا بنى الفواعل !

وهكذا لم يبرأ لسان الخليفة فى تعاليه مما لم تبرأ منه ألسنة العامة فى تدانيهم ، ولكنه الشر الغالب على أبى العباس كما قلت لك ، ما إن يملكه حتى يملك فيه كل شىء ، لسانه وعقله وقلبه ، فلا تورع ولا تأبى ولا تحرج .

ويثور الشر فى نفسه جملة ، ويختفى الخير من نفسه جملة ، وينسى شبه قضاء قضى به للقوم ، حين جمعهم بقضاء يقضى به على القوم حين أراد أن يخلص منهم ، فاذا هو يقول لهم ، وهو يريد غيظاً وسخيمة :

أرى قتلاكم من أهلى قد سلفوا وأنتم أحياء تتلذذون فى الدنيا ، خذوهم .

منطق ما أشبهه بمنطق الجاهلية ، ليس فيه عدل ولا إنصاف ، فليس بين القوم الذين التفوا حوله قاتل ولا آثم ولا محرض ، ولكن فيهم اللاجىء والمستعيذ والمستجير ، أثم الآباء وما أثم الأبناء ، وما بإثم الآباء يؤخذ الأبناء .

وما أجمل ما كان من أبى العباس حين وسعهم بعطفه فتلقاهم ، وما كان أجمل منه أن يؤنسهم لينسوا ، ويبرهم لتصلح قلوبهم ، ويرعاهم ليجعل لتلك المحن نهاية .

ثم ما كان أحمل به أن يحتاط لنفسه ولملكه حيطة أخرى ، ليس فيها الظلم المسرف ، ولا الإيذاء المستكره ، فهو خليفة مسلم أقل ما يجب عليه أن ينسى ما لذاته وما يتصل بها ، فلا يجعل من ولايته على المسلمين سلطاناً له على المسلمين يأخذ به لنفسه وينتصف به من خصمه .

وما كان بالملوم بعد لو بث عيونه عليهم يأخذهم على البادرة تصدر عنهم بالعقوبة التي يفرضها الدين على تلك البادرة ، لا إسراف ولا غلو ، وما نظن الإسلام جاء ليفرض بطش الولاة على الناس هوى لا يضبطه عدل ، أو ظلماً لا يقره قانون .

وإنما أقام الإسلام الولاة على الناس ليأخذوا من قويهم لضعيفهم ، وليقيموا العدل بينهم ، ولهم على الناس حق الطاعة فى المعروف ، لا يظلمونهم ولا يؤذونهم ولا يسلبونهم حقاً هو لهم .

وأكبر ما نهى الإسلام عنه وبغض فيه أن يؤثر الوالى نفسه بشيء دون الرعية ، باسم هذا السلطان ، أو أن ينال الوالى من الرعية شيئاً غير مشروع باسم هذا السلطان ، أو أن يركب الوالى الرعية طغياناً باسم هذا السلطان ، أو أن يرفع فيهم ويضع عن هوى باسم هذا السلطان .

ولكن أبا العباس السفاح أنسى هذا كله بطبعه القاسى الغاشم ، وبنفسه الظامئة إلى الدم ، تزكيه فيما فعل تلك الترات التى ذكرها ، أو ذكره بها سديف .

(٧)

ولقد سفك الأمويون ما سفكوا من دم ، وهم يملكون عليها حجة أو شبه حجة .

فلقد ثار بهم الهاشميون فانتقموا هم من هؤلاء الثائرين بهم انتقاماً لا تبرئه من الإسراف هو الآخر ، ولكنهم ملكوا بثورة الهاشميين بهم حجة لهم .

ولكنا ما نظن أن هؤلاء الذين قتلهم أبو العباس كانوا قد تهيئوا لثورة أو اجتمعوا لفتنة .

بل نراهم قد اجتمعوا حول أبي العباس يظهرون الطاعة ، وقد يكونون قد أخفوا غيرها .

وما كان لوال أن يأخذ الناس بما تخفي السرائر وتجن الضمائر ، وإلا كان آثماً إن فعل .

آثماً في ذات نفسه حين يحملها تلك الأوزار التي وراءها عقاب من الله شديد ، وآثماً في حق أمته حين يتيح لها تلك القدوة السيئة فتضطرب أمورها ولا تستقيم لها حال .

ولكنى مع هذا لم أكن أسيغ هذا اللقب الذى خلعه الناس على أبى العباس وأضافوه اليه ، فلأبى العباس أن يثأر ظالماً فيبوء بوزر الظالمين ، ويحمل إثمهم ، ولأبى العباس أن يأمر بتسعين رجلا من أشراف بنى أمية أبرياء إلا من جرائر للآباء فيقتلوا ، فيقال : رجل موتور أراد أن يأخذ بوتره ، لا يعنيه على من يقع الوتر ، ويقال : رجل أراد أن يحمى سلطانه ، ولم يشأ أن يكلف نفسه عناء الحيطة ، وقد تخونه الحيطة فيفلت منه هذا السلطان وهو غافل .

ولكني حين رأيت أبا العباس يعدو الثأر إلى شيء أمر من الثأر ، ويبعد فى الإسراف بالقتل إلى ما هو أشد نكراً من الإسراف فى القتل ، أصبحت أسيغ هذا اللقب الذى خلعه الناس على أبى العباس وأضافوه إليه .

يروى الرواة مجمعين أن أبا العباس دعا بالغداء ، حين قتل هؤلاء الأشراف ، الذين كانوا تسعين رجلا ، وأمر ببساط فبسط عليهم وجلس فوقه يأكل وهم يضطربون تحته .

فلما فرغ من الأكل قال : ما أعلمنى أكلت أكلة قط أهنأ ولا طيب لنفسى منها .

ثم لما فرغ من هذه قال : جروا بأرجلهم فألقوهم فى الطريق يلعنهم الناس أمواتاً كما لعنوهم أحياء .

ويقول الراوى ، ولم يكن بعيداً عن هذا كله : فرأيت الكلاب تجر بأرجلهم وعليهم سراويل الوشى حتى أنتنوا ، ثم حفرت لهم بئر فألقوا فيها .

ويقول غيره ، ولم يكن بعيداً عن هذا كله هو الآخر : لقد صلبوا فى بستانه حتى تأذى جلساؤه بروائحهم ، فكلموه فى ذلك ، فقال : والله لهذا ألذ عندى من شم المسك والعنبر .

وإنا لنعلم النفوس السليمة تنتهى ثورتها عند النيل ممن أحفظها ، حين يشتد بها الغضب ولا تملك أن تحزم أمورها ، ونعلم النفوس المريضة تخرج بها الثورة إلى ما بعد النيل إلى مثل ما خرجت إليه نفس أبى العباس من هذا الشطط المؤذى للإنسانية عامة ، ثم للإنسانية الإسلامية خاصة .

ولقد مرضت نفس أبى العباس مرضاً متصلا ، لم يشفها منه هذا الذى كان من قتل تسعين رجلا نشدوا الأمن فى جواره ، ولم يشفها منه قتل سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وهو مستوثق منه بحرمة الضيافة : بل لقد فشأ هذا المرض فى نفس أبى العباس كلها ، فإذا هو مريض كله لا مكان للسلامة من نفسه ، يأمر بنبش قبور بنى أمية بدمشق ، فينبشون قبر معاوية بن أبى سفيان ، بعد ما يربى على نصف قرن من موته ، فلا يجدون فيه إلا هباء .

ويأمر بنبش قبر يزيد بن معاوية ، بعد ما يربى على نصف قرن من موته ، فلا يجدون فيه إلا حطاماً كأنه الدمار .

ويأمر بنبش قبر عبد الملك بن مروان ، بعد نحو من نصف قرن من موته ، فيجدون فيه جمجمة ، ويأمر بنبش قبور الخلفاء جميعاً فلا يجدون فى القبور إلا العضو بعد العضو ، غير هشام بن عبد الملك ، فقد وجدوه صحيحاً فى قبره لم تبل منه إلا أرنبة أنفه .

وهنا أحب أن نسمع معي لما يرويه الرواة ، يقولون :

إنه ما كان يظفر بتلك الجثة كاملة حتى أمر من يضربها بالسياط ، ثم أمر بها فصلبت ، ثم أمر بها فحرقت ، ثم أمر بها فذريت في الريح .

ولقد اقترفت أيدى الأمويين شيئاً من هذا الإثم وذاك التنكيل ، ولكنهم اقترفوه ليرهبوا به الثائرين من حولهم ، فمضوا مع عذر يقوم لهم حجة .

ولكن أبا العباس اقترفها وليس بين يديه عذر يقوم له حجة ، ليس بين يديه ثائرون أو شبه ثائرين يرهبهم ، ولكنه يطفىء ثائرة نفسه وثائرة غيظه .

وهكذا تتبع أبو العباس بنى أمية أولاد الخلفاء وغيرهم ، فلم يفلت منهم إلا رضيع أو هارب ، واستصفى أموالهم كلها غنيمة سائغة له ، وإذا هو بعد هذا طيب النفس قرير العين ينشد :

بنِي أمَية قد أفْنَيتُ جَمعكمُ ... فكيف لِى مِنْكُم بالأول الماضى

يُطَيِّب النَفْسَ أن النَار تَجمعكُم ... عُوِّضتم مِن لظاها شَرَّ مُعْتاض

مُنِيتُمُ لا أقال الله عَثرتكم ... بلَيْثٍ غاب إلى الأعداء نَهَّاض

وكأني بهذا السفاح المريض النفس كان بحاجة إلى من يفثأ غضبه ، ويسكن مرضه ، فيرده إلى شيء من الهدوء والسلامة ، وكأني بهذا السفاح المريض لو رزق هذا الفاثىء وذلك المسكن لمرّت حياته دون أن تشيع فيها تلك الأوزار الثقال .

وكأنى بالناظرين فى أمر الناس من آل أبى العباس ممن لم يؤمنوا إيمانه بتلك القسوة المبيدة ، وذلك الشر المفسد ، عاشوا إلى جنب أبى العباس أول الأمر يخافون أن يصلوه حتى لا يظن بهم الظنون فلم يستحبوا أن يدخلوا بينه وبين ما يفعل ، لم تخل نفوسهم هم الآخرون مما لم تخل منه نفس أبى العباس ، ولكنهم لما وجدوه قد أربى على ما يجيزون لم يجيزوه على ما يفعل ، ولكنهم ظلوا ينتظرون ، فلقد كانت نفس أبى العباس ألصق بالداعين إلى الشر ، وكانت نفس أبى العباس لما ترو بعد ظمأها من هذا الشر ، ولكن هذه النفس ما لبثت أن فقدت هؤلاء الداعين شيئاً ما ، ثم ما لبث أن رويت شيئاً ما ، فإذا هى بعد هذا وذاك قد هدأت شيئاً ما ، وإذا المحبون للأمن من آل أبى العباس ، يجدون سعة لأن يقولوا فقالوا .

فلقد كان ممن هربوا من أبى العباس أموى معروف ، هو عمرو بن معاوية بن عمرو بن سفيان بن عتبة بن أبى سفيان ، احتال لنفسه قبل أن تقع عليه يد أبى العباس ، وكان كلما نزل مكاناً عرف به تركه إلى غيره ، حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وسدت فى وجهه السبل .

وكما عُرف عمرو فى المحيطين بأبى العباس المؤرثين للشر ، عرف بين الموطدين للأمن ، وكان يرى سليمان بن على واحداً من هؤلاء الداعين للأمن ، الراغبين فى ألا يساء إلى العباسيين على يد أبى العباس بما يفعل .

ولم يكن سليمان بن على قد لقى عمرو بن معاوية من قبل ولا عرفه ، ولكن عمرا كان يعرفه ، ولم يغب عنه خبره .

وفى ضوء هذا الأمل مضى عمرو إلى سليمان يستجير به ، يحدوه اليه ما شاع عنه من ميل إلى الدعة والرفق ، فذهب اليه وقد أسلم أمره إلى الله .

وتعلق عمرو بسليمان وهو يقول له : لفظتنى البلاد إليك ، ودلنى فضلك عليك ، فإما قتلتنى فاسترحت ، وإما رددتنى سالما فأمنت .

ويدهش سليمان لهذا الهارب المستجير المستأمن ، وما ظنه غير أموى من هؤلاء الأمويين المفزعين الهائمين على وجوههم فى الأرض ، ولكنه لم يعرفه فالتفت إليه يقول : ومن أنت ؟ فاطمأن عمرو قليلا وتشجع يعرفه بنفسه .

ولقد امتلأ طمأنينة حين وجد سليمان بعد هذا يرحب به ويسأله عن حاجته .

وهنا تأخذ هذه النفس المعذبة فى شكواها ، ويأخذ هذا اللسان المحبوس فى حديثه ، وإذا عمرو يقول : ان الحرم اللواتى أنت أوفى الناس بهن ، وأقربهم اليهن ، قد خفن لخوفنا ، ومن خاف خيف عليه .

ويحرك عمرو بشجوه شجو سليمان ، فإذا هو يبكى ، وإذا هو يبكى كثيراً ، وقد أخذ لسانه يردد هذه الكلمات فى رفق ، يخاطب بها عمرو بن معاوية ، يحقن الله دمك ، ويوفر مالك ، ويحفظ حرمك .

ولكن سليمان لا يملك أن يضمن هذا كله ولا شيئاً من هذا كله لعمرو ، فمن ورائه أبو العباس ببطشه وظلمه وقسوته ، وهنا أخذ سليمان في الكتابة إلى أبي العباس بأمر هذا اللاجىء المستأمن ، وما جرؤ عليها سليمان ، وكان لا يقوى على مثلها منذ حين قريب ، إلا بعد أن ضاق ، وحركه هذا الضيق إلى غضب ، ثم دفعه هذا الغضب إلى استنكار ، ثم دفعه هذا الاستنكار إلى شجاعة : هذا إلى أن أبا العباس —كان كما قلنا— قد وهن شيئاً ، وكان دعاة الشر قد وهنوا هم الآخرون شيئاً .

وما كتب سليمان إلى أبي العباس في أمر يخص عمرو بن معاوية وحده ، ولكنه كتب اليه في أمر بني أمية كلهم ، فلم تعد المشكلة مشكلة عمرو ، ولكنها باتت مشكلة عامة لا ينفع فيها أن ينجو عمرو وحده ، كانت مشكلة أمن اضطرب ، وجور ساد ، وقانون افتقد ، ووال أساء ، وبيت عباسي يكاد يفقد ما كسب .

لهذا كتب سليمان إلى أبي العباس فأفصح ثم نصح ، ثم أشار عليه بما يجب وكأنه يأمره ، فقال له :

يا أمير المؤمنين ، إنه قد وفد وافد من بني أمية علينا ، وإنا إنما قتلناهم على عقوقهم لا على أرحامهم ، فإننا يجمعنا وإياهم عبد مناف ، والرحم تبل ولا تقتل ، وترفع ولا توضع ، فإذا رأى أمير المؤمنين أن يهبهم لي فليفعل ، وإن فعل فليجعل كتاباً عاماً إلى البلدان ،

لنشكر الله تعالى على نعمته عندنا وإحسانه إلينا ،

كتاب فيه الغلظة المستورة ، والأمر الملبس لباس الرجاء ، وكان هذا الكتاب جديراً بأن يحرك أبا العباس إلى غير ما يرجوه سليمان منه ، ولكنه ورد على أبي العباس فصادف منه نفساً قد خثرت ، كما قلنا ، فإذا هو يجيب سليمان إلى ما طلب في يسر ، وإذا هو يمضي بيمينه ذلك الأمان العام لبني أمية ، وتعود الحياة أمناً كما كانت من قبل ، ولكن بعد أن خلفت النفوس على وتر جديد .

(٨)

وما آل هذا السلطان لبني العباس هينا سهلا ، ولا استقام هينا سهلا ، ولا ألقى الناس مقاليدهم عن طواعية واختيار ، ولا أمن بنو العباس شرهم فيما بينهم وبين أنفسهم ، ولا أمنوا بني أبي طالب بهم ، ولا صفت الحياة بينهم وبين قوادهم وأعوانهم ، بل كان بين يدي هذا كله أهوال ذاق منها بنو العباس شيئاً قليلا ، وأذاق قواغيرهم شيئاً منها كثيراً ، وكان أعظم الهول وأشده ما أصاب الشعب العربي في مختلف أقطاره وبلدانه ، فغدا تتنازعه الآراء التي دخل بها عليه هؤلاء ، وما كان يملكه أن يعيش بعيداً عن تلك الآراء ، ولكن كان عليه أن يبتلى بها أشد البلاء .

تهيأت الكوفة للقائهم جادة تريد أن تكفر عن خذلانها للحسين من قبل ، وتهيئوا هم لدخولها ، يريدون أن يلتقوا بأنصارهم على موعد قد قُدر ، فيعلنوا أمرهم ويخرجوا عن السر إلى الجهر ، ومن التدبير إلى العمل ، وأبو العباس على رأس آله ونفر من شيعتهم وأنصارهم من أهل خراسان .

ويلقاهم زعيم الشيعة بظاهر الكوفة ، هو أبو سلمة الخلال ، كان عباسياً فيما يظهر ، ولكن هواه كان لآل أبي طالب ، يود بجدع الأنف لو حول الأمر من هؤلاء إلى هؤلاء .

وكان هذا الزعيم قد بلغه الخبر عن موت إبراهيم الإمام — أخى أبى العباس — انتهى إليه هذا الخبر وحده دون الناس ، ووجد الفرصة مواتية لأن يفيد من موت إبراهيم فيدعو لغيره من آل أبى طالب .

لهذا دبر أبو سلمة ، فأنزل أبا العباس ومن معه من آله بظاهر الكوفة ، وظل يكتم أمرهم نحو أربعين ليلة ، جعله بمعزل عن القواد لا يلقونه ولا يلقاهم ، وكان هو موصولا بهؤلاء القواد يلقونه ويلقاهم على شىء يؤامرهم فيه ، ولم يكن هذا الشىء غير صرف الأمر عن العباسيين ، ورده عودا إلى أصحابه من آل أبى طالب .

ولقد علموا هم أن الإمام إبراهيم قد مات ، وعلم هو منهم ذلك ، ولم يعلموا هم أن إبراهيم قد أوصى إلى أبى العباس ، وأن أبا العباس منهم غير بعيد على قاب قوسين أو أدنى ، وعلم هو أن إبراهيم لم يترك الدنيا غير موص ، وأن وصيه أبا العباس هذا الذى حجزه بظاهر الكوفة حتى يقضى فى أمره .

ولكن أبا سلمة كان ذا قلب ولم يكن ذا عقل ، وكان ذا عاطفة ولم يكن ذا رأى ، فلقد أحب آل أبى طالب بقلبه ولكنه لم يعرف كيف ينفعهم بعقله ، وفعل ما فعل بأبى العباس وصحبه يستملى عاطفته ولا يستملى رأيه ، فلم يغتنم الفرصة عجلا حين بدت له ، ولم يصرف الوجوه إلى ما أحب حين أحب ، بل ترك الساعات تمر ، وكلما سأله أصحابه عن الإمام يقول لهم : لا تتعجلوا .

ولم يعرف أبو سلمة أن أبا العباس من أصحابه قريب ، وأنه

إن خفى مكانه عليهم ساعة فلن يخفى أخرى ، وأن التدبير أنجحه أبغته ، وأقربه من التوفيق ما صادف وقته .

وكأنى بأبى سلمة لم يكن قد وصل حبله بمن يريد أن يجعل له الأمر من آل أبى طالب ، وكأنى به قد بغتة موت إبراهيم ، ونزول أبى العباس به : وكان أبو سلمة ذا قلب وذا عاطفة فتحرك قلبه كما تحركت عاطفته لتلك الفرصة ، وسكن لتحركها عقله كما سكن رأيه ، فإذا هو مستجيب لشىء غير مستجيب لشىء آخر ، وإذا هو بين يدى هذا التدبير الذى لا عقل معه ولا رأى .

فما هى إلا عشية أو ضحاها حتى بان ما ظن أبو سلمة أنه مخفيه ، فإذا أبو العباس موصول بأهل الكوفة ، يعرفون مكانه كما يعرف أبو سلمة ، ويعرفون أمره كما يعرفه أبو سلمة ، وإذا هو خليفة الناس على الرغم من تدبير أبى سلمة .

جرى هذا كله أو بعضه وأبو سلمة قار حيث هو يدبر لأمره ، يطلب منه أبو العباس كراء الجمال التى حملتهم إلى الكوفة ، فيقبض يديه ولا يرسل إليه بشىء ، يريد أن يبغض إليه المقام فيضيق به ، ويريد أن يبغض إليه الناس فلا ينشط للقائهم ، ويريد أن يمكن لأعدائه فيقبضوا عليه .

ولكن هذا كله أو بعضه جرى على غير ما قدر أبو سلمة ، فقد أرسل إليه الشيعة بما أحب من مال ، ولم يضق أبو العباس بمقامه ، وعرف أن الناس معه غير أبى سلمة ، فنشط للقائهم ونشطوا للقائه ،

ومرت المحنة بسلام ، لم يبلغ أعداءه فيها شيء فيكيدوا له ، وعرف هو بعد هذا غدر أبي سلمة فأسرها في نفسه ولم يبدها له .

وهكذا خرج أبو سلمة من ذلك الأمر بغير ما دخل به ، فقد دخل إليه نصيرا ومعينا ، وخرج منه مباغضا مباعدا ، وقد دخل إليه صديقا له ما للأصدقاء ، وخرج منه عدوا عليه ما على الأعداء، وإذا أبو العباس بعد ما أصبح أمير المؤمنين يدبر لأبي سلمة كما دبر له أبو سلمة قبل أن يصبح أميرا للمؤمنين .

ولم تكن شنشنة أبي العباس أن يتلبث بخصمه كما تلبث أبو سلمة به ، ولكنه لم يكن على كل ما يفعل شجاعا غير هياب ، ولقد كان بين يديه مما هو ثأر وانتقام ما يرده عنه خوف وإحجام ، وكان أمر أبي سلمة الذي بين يديه من ذاك .

وكتب أبو العباس إلى أبي مسلم يعلمه برأيه في أبي سلمة ، وما كان هم به من الغش .

ويكتب إليه أبو مسلم بلغة ذلك العصر الذي كان يعيش فيه وبمنطق تلك الحياة التي كان يحياها : إن رابك منه شيء يا أمير المؤمنين فاقتله .

ويكاد أبو العباس أن يفعل ، فيرده عنها عمه داود بن علي حتى لا يجعل لأهل خراسان عليه حجة .

فلقد كان أبو سلمة الخلال زعيما من زعماء الخراسانية ، وهم من هم نصرة وتأييدا لأبي العباس ، إن مالوا عنه والدولة في أيامها الأولى انتقض عليه ما جمع ، وأفلت من يديه ما انضمت عليه .

قر هذا فى نفس أبى العباس فارتد يحتال لقتل أبى سلمة ، لا يريد أن يقال عنه إنه أمر به فيؤلب الخراسانية عليه ، وأخذ يظهر لأبى سلمة شيئاً ويسر له شيئاً آخر ، أخذ يظهر له الأنس به والرضى عنه ، ويسر له الضيق به والنقمة عليه .

ويدخل عليه أبو سلمة الخلال بعد ما أخفق فيما دبر بهتته بالخلافة ، فيلقاه جليس لأبى العباس بما يسوءه مظهراً الشماتة به ، وهو يقول له : على رغم أنفك .

فيلتفت أبو العباس إلى جليسه يكفه عن إيذاء أبى سلمة أو التعرض له بما يكره .

ثم يأمر أبو العباس منادياً ينادى فى الناس : إن أمير المؤمنين قد رضى عن أبى سلمة .

ويمضى أبو العباس فى تدبيره فيدعو إليه أبا سلمة فيكسوه ويخلع عليه ، ويأنس أبو سلمة بأبى العباس ، فينصرف عنه ليعود إليه ليلة ، فيجلس إليه يسامره سمراً متصلا حتى يمضى من الليل عامته ، ثم ينصرف إلى منزله ليلقى فى الطريق نفراً أقيموا له ليقتلوه .

(٩)

وهكذا جبر أبو العباس لقتل أبي سلمة ، وهو يشيع ويذيع أن الخوارج هم الذين قتلوه ، وأنه لم يقترف إثم ذلك .

ولكني بعد هذا لا أحب أن أطوى الحديث عن مقتل أبي سلمة عجلا ، فلقد مر بك غير بعيد ما كان من داود بن علي ، عم أبي العباس ، من ريبة حول أبي مسلم ، وما كان داوود بن علي وحده هو الذى كان يظن أن وراء أبي سلمة أبا مسلم ، وأن أبا سلمة لو لم يأنس إلى هذا الداعية أبي مسلم ما ركب ما ركب ، وأنه ما فعل ما فعل إلا عن اطمئنان بأن أبا مسلم يؤازره ويرى رأيه .

لقد كان هذا ظن نفر من الناس المحيطين بأبي العباس ، ولم يكن داود بن علي إلا الناطق بما يجيش فى صدور هؤلاء .

ولقد سمعها أبو العباس قبل أن يستمع إلى هذا الرأى الذى أشار به داود عليه منذ قليل ، حين هم بقتل أبي سلمة ، ولقد كان أبو العباس فى شك من الأمر ، أو قل فى شك من أبي مسلم ، من أجل هذا لم يقض فى أمر أبي سلمة حين بدا له أن يقتله — وهو السفاح العنيد — بل رجع عما تمليه عليه طبيعته القاسية وكتب إلى أبي مسلم وكتب إليه أبو مسلم بما يؤكد به إخلاصه ودفع الريبة عنه .

وما نظن أبا مسلم كان بعيدا عما يثار فى مجلس الخليفة حوله من تهمة وريبة ، وما نظنه ، إن جهل هذه، يجهل كتاب الخليفة إليه وما يثير ، فلقد كان أبو مسلم رجل فتنة وكان شيخا من شيوخها ، إن لم يكن شيخها الأول ، ثم هو بعد هذه وتلك لم يكن يجهل أن بين الناس وراءه حاقدين عليه ومنافسين له ، وكلاهما له عدو مبين ، وما أكثر ما خلف أبو مسلم من حاقدين بما أسرف فى التنكيل ، وما أكثر ما خاف أبو مسلم من منافسين حين ظهر اسمه وكتب له هذا الفوز وذاك النصر .

وما نظن أبا مسلم لم يبلغه ذلك المجلس الذى اجتمع هو والخليفة فيه يتبادلان الرأى فى أمر أبى سلمة ، وما نظن أبا مسلم لم يبلغه قول من قال ، وهو يذكر أبا سلمة : لعل ما صنع كان من رأى أبى مسلم .

وإن أحسنا الظن فقلنا : إن أمر هذا المجلس مضى على سر وتكتم ، وان أحسنا الظن فقلنا : إن أبا مسلم لم يكن له وراءه عيون تتجسس الأخبار لتنهيها إليه فى حينها .

فمن الإنصاف أن نحسن الظن أيضاً بأن أبا مسلم كان ذا عقل وكان داهية ، وكان حنكا يستطيع أن يستشف من كتاب أبى العباس ما فاته ، مع حرص أبى العباس على قضاء أمره خفية ، ومع حرمانه هو — أعنى أبا مسلم — من أن تكون له هذه العيون .

وهكذا زرعت فتنة أبى سلمة فى نفس هذين الرجلين شيئاً — أعنى أبا العباس وأبا مسلم — زرعت فى نفس أبى العباس الشك فى أبى

مسلم أولا ، ثم التنبه لشأنه ثانياً ، ثم الخوف منه ثالثا ، ثم بعد هذا كله التفكير فى التخلص منه .

وزرعت فى نفس أبى مسلم مثل ما زرعت فى نفس أبى العباس ، شكاً وتنبها وخوفاً ، ولكنها لم تستطع أن تزرع غير هذه الثلاثة ، فقد أصبح أبو العباس قويًّا شيئاً ما وأبو مسلم ضعيفاً شيئاً ما ، لأن رسالة أبى مسلم كادت أن تنتهى بصيرورة الأمر إلى أبى العباس ، ورسالة أبى العباس بدأت بالتفاف الناس حوله وتوليه الأمر ، وذهاب الدولة الأموية ، ولأن الشيعة كانوا قد سئموا هذا المطاف الطويل وملوا السعى فيه بعد أن انتهى أمر الخلاف بين الأمويين والعباسيين على هذه الصورة التى إن لم تكن رضى كلها ففيها بعض الرضى ، ولأن تحريكهم لغيرها لم يكن هينا ، لأنها تفقد أسبابها الدافعة ، أولم يكن ذلك مأمونا ، لأن أبا العباس عنيف بخصمه ، قاس على من يناوئه ، غليظ لا عهد لقلبه برحمة أو رأفة .

غير أنها زرعت فى نفس أبى مسلم غير هذه الرابعة شيئاً آخر ، زرعت فيها المصانعة لأبى العباس والجد فى استرضائه ، فلقد فطن أبو مسلم إلى أنه لا حيلة له فى تغيير دفة الأمر بعد أن استقر ، ولقد عرف أبو مسلم أن دعوته الثانية إن هب يدعو لغير أبى العباس غير دعوته الأولى ، فهذه دعوة أصبح عليها كثرة ما بين عباسيين وهاشميين وتلك دعوة لن يجتمع عليها إلا هاشميون ، إن أصبحت لهم كلمة ، وما أبقى الزمن منهم غير نفر لا حول لهم ولا قوة .

وها هو ذا أبو العباس قد أمكنته الفرصة من خصم قوى هو أبو

سلمة ، وربما كان اليد الباطشة لأبى مسلم إن أراد أن يفعل ، فلقد كان يقال لأبى سلمة إنه وزير آل محمد ، كما كان يقال لأبى مسلم : إنه أمير آل محمد ، فما غناء الأمير بعد ذهاب الوزير ؟

ولكن أبا مسلم على هذا لم يكن هينا ، كما أنه لم يكن قويا القوة كلها ، يفسر لك ذلك ما كان من أبى العباس حين قيل له فى مجلسه ذاك الذى أشرنا إليه : لعل ما صنع أبو سلمة كان عن رأى أبى مسلم ، فإذا هو يقول : لئن كان هذا من رأيه لنعرضن إلى بلاء إلا أن يدفعه الله عنا .

وهكذا عرف أبو العباس ما عند أبى مسلم ، تصور له الحقيقة شيئاً ويصور له الخوف شيئاً ، ولقد كان ما يصوره الخوف يربى على ما تصوره الحقيقة ، فما أهلع قلوب الملوك ، وإن بدوا شجعاناً ، وهم لهذا يفزعون للخطب اليسير يظنونه خطباً جسيماً ، يأخذ فيه أخذهم بالقسوة القاسية فتخاله عاتياً قاسياً ، وإنما هو رعد يد هلعة يبطش بيد خائفة ، فهى لهذا تعيث وتسرف ، ولا يبطش بيد جريئة تعقل ولا تسرف .

وبات أبو العباس لما حين ظن شيئاً وخاف شيئاً ، يطغى عليه خوفه فلا يتركه يتدبر فى ظنه علّه يكون باطلا من البطلان .

ولقد استجاب أبو مسلم لأبى العباس حين طلب إليه أن يتولى هو قتل أبى سلمة ، وكان ذلك عن إشارة من داود بن على — عم أبى العباس — فما تخلف أبو مسلم .

وكان داود بن على فيما أشار به على أبى العباس يريد أن يحكم للشك فى قلب أبى العباس عن أبى مسلم ، ويريد ألا يرى إلى جانبه شخصاً

ملحوظاً يرتبط مصيراهما به ، ويريد ألا يعرف الناس أبا مسلم فينسوا داود بن علي وإخوته .

وهكذا كان الأمر ملكاً لا بد أن يخلص كله لأصحابه ، وأن يبرأ من كل شائبة تمت إلى الحق بسبب أو لا تمت إليه بسبب ، لا يعني هؤلاء الأصحاب أن يطوحوا برؤوس المخلصين لهم كما يطوحون برؤوس المنابذين لهم .

وما نظن أنه أغنى عن رأى أبي مسلم شيئا إرساله مرار بن أنس الضبي لقتل أبي سلمة ، بخرجه من عند أبي العباس ، ليلته تلك التي سمر فيها مع العباس فأطال السمر ، فلقد ظل الخوف منه هو الخوف في قلب أبي العباس ، ينمو مع الزمن ، على الرغم من توكيد من أبي مسلم ، سيمر بك شيء منه .

وكانت تلك زلة ، فيما نظن ، من أبي مسلم ، فلقد فقد نصيرا لم يكن القتل جزاءه ، وكان استصلاحه يسيراً ، وما كانت جريرته غير أنه أخلص للدعوة ورأى أصحابها بها أولى ، ولم يشأ أن يحيد بها عن قصدها ، وكانت محاولة غير مسلحة أراد أن يسبر بها غور الأمور ، إن نجحت فقد أدى ما في عنقه ، وإن باءت بالخسران فما نظنه كان سيبقى قائماً على مناوأة أبي العباس .

يدلك على ذلك ما كان منه من إقبال على أبي العباس ، وما كان منه من تسليم ، وما كان منه من اطمئنان .

وما نظن ذلك كله كان منه عن خوف ، ولكنا نظن أن أكثره كان عن استسلام لما تم له ولقد كان شيعيا يعنيه أولا أن تخلص الأرض

من حكم الأمويين ، ولا عليه بعدها أن يتم الأمر لغير من كان يؤثر ، ما دام هذا الأمر لم يخرج إلى بعيد غير ذى سبب متصل .

ولقد أنسى أبو مسلم أن تمهيده للخلاص من أبى سلمة كان تمهيداً للخلاص منه ، وأن أبا العباس حين خافه فقال ما قال خافه لأن من حوله أنصارا ومؤيدين ، مثل أبى سلمة ، وهو حين يعلم أنه قد ذهب عنه مثل أبى سلمة فهو أقل منهم خوفاً وأخف .

ولكن أبا مسلم كان ، كما قلت لك ، يريد ألا يفقد نصيبه من المغنم بعد أن استوى له هذا المغنم ، وكان يريد أن يطمئن قليلا فى ظل الحياة الكاسبة بعد أن اضطرب كثيرا فى ظل الحياة الخاسرة ، أعنى أنه كان يريد أن يذوق حلاوة الراحة والملك بعد أن ذاق مرارة الجهاد والتشريد .

لهذا أنسى أبو مسلم ، أنه قد باع صديقاً دون ثمن ، وأنه قد مكن منه عدوا دون ثمن أيضاً .

وقد أنسى ذلك كل النسيان ، ولم يترك لرجعة سبيلا ، ولا لعذر طريقاً ، حين وجه محمد بن الأشعث إلى فارس وأمره أن يقتل عمال أبى سلمة ، لا يبقى منهم أحداً ولا يذر .

(١٠)

وما هدأ السفاح وما هدأت الفتنة ، هو قلق والناس قلقون ، ملك لم يجتمع القوم له على رأى جامع ، بل كان لمن غلب ، وقوم رأيهم بينهم موزع قد بلبله عليهم الدعاة من ها هنا ومن ها هنا ، وبلبله عليهم الطامعون فى الحكم من ها هنا ومن ها هنا ، فعاش القوم فرقا وأحزاباً، يضرب الدعاة والطامعون بعضهم ببعض، والقوم على ذلك مكرهون ، يصبحون على قتل ويمسون على قتل ، وكأنهم بين يدى جاهلية مفرقة ، لا إسلام معه السلام والأمن .

وهكذا ضل الناس أسباب دينهم ،وأغروا بأسباب دنياهم ، وليتهم دخلوا إلى دنياهم تلك الفاتنة بتلك الأسباب الدنيوية التى دخلوها بها فى جاهليتهم ،بل لقد دخلوا دنياهم تلك متخذين من الدين سبباً ووسيلة ، فانصاع الناس لهم ، والتفوا حولهم مخدوعين مغررين .

فلقد كان على العراقين أمير أموى ، وهو يزيد بن عمر بن هبيرة ، وليهما لمروان بن محمد .

استعصى على الدعوة العباسية ولم يلن لدعاتها ولم يستجب لهم ، وثارت بينه وبينهم حروب آتت على خلق كثير .

ولكن هذه الحروب لم تنته بقتل مروان بن محمد وذهاب الدولة الأموية بل بقي ابن هبيرة يحمل لواءها ، ثم يخال الناس قد ثبطهم عنه قتل الخليفة الأموي الأخير ، أوفت في عضدهم قيام الدولة العباسية ، ويعز عليه أن يهدأ أمر الناس وينتهي هذا البلاء ، فإذا هو يتحول بجمعهم على سهب آخر للحرب بعد أن فقدوا سببهم الذي من أجله يحاربون .

لقد كان ابن هبيرة بالأمس القريب يحارب من أجل دولة يدين لها بالولاء ، ويدين لها بالولاية على العراقين ، وما نلومه على ذلك فهو به قمين ، ولكن حين يختفي سبب الحرب الذي من أجله حارب ، وحين يحل ملك مكان ملك ، ما كان أولاه أن يسلم أمر الناس إلى هدأة وأن يدعهم إلى استقرار . وشغل الناس بأنفسهم أولى من شغلهم بالملوك ، وما عاد يعنيهم لو ترك الأمر لهم خالصاً أن تستبدل الأيام بملوكهم فتنزع أمويا وتضع عليهم عباسيا ، بعد أن جربوا الحياة في ظل تلك الفتن التي لا تهدأ ، وفي ظل تلك الفوضى التي بلاهم بها هذا الخلاف بين الأمويين والعباسيين .

ولكن الناس كانوا على هذا أغرارا ، وكانوا لا رأي لهم ، يجتمعون على غير كلمة جامعة يدبرونها بينهم ، سريعاً ضلالهم ، وسريعاً انخداعهم ، وسريعاً حملهم على ما يكرهون .

من أجل هذا لوح لهم ابن هبيرة بشيء يحبونه ليثير لقومهم ، وليضمنهم معه على الحرب ، بعد أن أحس منهم تخاذلا عنه ، حين جاءهم الخبر بمقتل مروان ، وقال قائلهم : علام تقتلون أنفسكم وقد قتل مروان ؟

لقد لوح لهم ابن هبيرة بالدعوة إلى محمد بن عبد الله بن بن الحسن على ، لا يريد بدعواه الإخلاص إلى الله ، ولكنه كان يريد شيئين :

يريد أن يجمع الناس حوله بعد أن كادوا ينفضون عنه فيمضى فى الحرب حتى يكتب له النصر .

ويريد أن يخرج من هذه الحرب ملكاً أو شبه ملك قد ضمن السلطان الذى كاد أن يفقده ، والجاه الذى كاد أن يفوته .

وقد علم ابن هبيرة ما فى قلوب الناس من حب لآل على ، وعلم ابن هبيرة ما فى قلوب الناس من تنكر لآل العباس ، حين سلبوا الحق من آله ، وفوتوه على أصحابه . .

فسرعان ما تحول هؤلاء الأغرار الذين كانوا يحاربون بالأمس دفاعاً عن بنى أمية منكرين على الدعاة دعوتهم ، إلى محاربين من أجل الدعوة على تلك الصورة التى صورها لهم ابن هبيرة فى يوم وليلة .

وهكذا كان الناس عقولا لم يستقم لها رأى ، وقلوباً لم يستبن لها هوى ، وكانوا ضعافاً يسوقهم الخوف ويضل عنهم الرأى ، وكانوا مفزعين يهاجون إلى الحرب فى يسر وهينة ، وكانوا أعطش ما يكونون إلى الأمن ، ولكنهم لم يجدوا غير الحرب طريقاً إليه .

من أجل هذا انصاع الناس يحاربون ، ومضى بهم ابن هبيرة يحارب ، ولكن الذى تجمع لأبى العباس لم يتجمع مثله لابن هبيرة ، ولأن تلك القلوب التى التفت حول ابن هبيرة كان ينقصها الإيمان العميق بما يدعو إليه ، على حين كانت القلوب التى التفت حول أبى

العباس عامرة شيئاً ما بما آمنت به ، ولأن أبا العباس الدقسفاح كان ملأ القلوب خشية بما أزهق من أرواح وبما سفك من دماء ، ولأن أبا مسلم كان حين مكن للسفاح ساعة تخلى عن أبى سلمة ، وجعل الدعوة لعلوى، قد أتى ضرباً من ضروب المخاطرة .

من أجل هذا كله لم يصمد ابن هبيرة لحرب السفاح ، وما إن رغب فى الصلح حتى رغب هو فيه ، صلحاً مشروطاً بالأمان له ، وأمضاه أبو جعفر أخو السفاح بعد أن استأنس أبو جعفر برأى السفاح ، وبعد أن جرى السفراء بين ابن هبيرة وبين أبى جعفر أربعين ليلة فى هذا الصلح حتى رضيه ابن هبيرة .

وكما لم يتحلل السفاح من قسوته لم يتحلل أبو مسلم من قسوته ، ولكن السفاح على عنفه أخذ يخاف العاقبة شيئاً ، لا يريد أن يحمل إثم تلك الدماء كلها فى ظاهر الأمر على أقل تقدير ، على حين لم يرع أبا مسلم ظاهر هذا الأمر ولا باطنه .

وكأنى بالسفاح كان يمهد بهذا التظاهر بالرفق إلى شىء ما ، وكان هذا الشىء الذى يريده ويمهد له هو الخلاص من أبى مسلم .

وكأنى بأبى مسلم رأى فى هذا الذى يمهد به السفاح شيئاً وغاب عنه منه شىء ، فلقد خال أبو مسلم فى هذا الذى يمهد به السفاح الشك فى طويته والريبة فى إخلاصه ، فأخذ يملى عن عنف لا تقره نفسه عليه جزاء عادلا ، ولكنها تقره عليه إرضاء للسفاح فيما يرى ، وتبريئاً لنفسه فيما يحسب .

وهكذا فعل أبو مسلم فى أمر أبى سلمة الذى مر بك ، وهكذا فعل أبو مسلم فى أمر ابن هبيرة الذى ستعرفه .

وغاب عن أبى مسلم أنه بعنفه على الناس قد خسر الناس ولم يكسب أبا العباس ، فلقد كتب السفاح لأبى مسلم يعرض عليه أمر ابن هبيرة بما انتهى إليه ، وما كان لأبى مسلم لو فطن أن يقضى فى هذا الأمر بغير ما قضى فيه أبو جعفر ، أماناً يجب أن يلزم به معطيه ، ولقد أعطاه أبو جعفر بعد ما آمر فيه السفاح وبعد ما رضيه السفاح ، أماناً ما كان لمحارب أن يخرج عنه ويتنكر له ، أماناً لم يخرج عليه الناس فى جاهليتهم الضالة إلا من رضى منهم أن يعيش بسبة الأبد وعار لا يمحى .

ولكن أبا مسلم ، كما قلت لك ، كان يعرف هوى السفاح فى أن يقتل ابن هبيرة ، وكان يخال أنه ممتحن عنده بهذا الذى كتب به إليه يسأله الرأى فيه ، ويعرف أنه لو نصح مخلصاً لحقته التهمة ، وأنه إن أشار غير مخلص قارب أن يكون من المبرئين عند السفاح .

ولكن أبا مسلم على هذا كان رجلا يحب أن يمكن لنفسه ، يكره أن يعيش إلى جوار الخليفة رجل له ما لابن هبيرة من قوة وجاه ، ويكره أن تستقيم لابن هبيرة مع السفاح حال فينسى رجلا برجل ، من أجل هذا وذاك أجاب أبو مسلم السفاح يقول : إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد ، لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة .

ولعل أبا مسلم كان هو الآخر ماكراً ، ولعله أراد شيئاً ، هو أن يرخى للسفاح فى انتقامه فيكون قد أرضاه وأبعد الشك عنه ، ويكون قد ورطه فى قسوته ، فيزيد الناس عليه سخطاً وبه ضيقاً ، ويكون قد

خلص من ابن هبيرة وأساء إلى السفاح ؛ وبهذا يكون قد انتهى إلى كثير مما يريد .

ولم يفعل السفاح فى هذه – أعنى مقتل ابن هبيرة – ما فعل فى الأولى – أعنى مقتل أبى سلمة – حين وكل إلى أبى مسلم أمر قتله ، وخرج منه السفاح مُعافًى غير آثم .

فلقد كان السفاح يملك مع غضبه على أبى سلمة شيئاً من الرأى وشيئاً من الخوف ، إذ كان أبو سلمة داعية من الدعاة فكانت له حرمة وكان له خطر ، وكان أبو سلمة يعتز بنفر من حوله من الشيعة فكان منه خوف ، وكان أبو سلمة غير بعيد من أبى مسلم فكان لابد من حيطة .

ولكن ابن هبيرة لم يكن له من هذا كله غير الاعتزاز بقبيله ، وقد أوشكوا أن ينفضوا عنه ، ثم هو قد أوغر نفس السفاح عليه إيغارا لم يملك معه السفاح رأياً ، ولم يملك معه أن يذكر الأمان الذى أعطاه .

فلقد دخل ابن هبيرة على السفاح يوماً بعد ما صار إليه وأخذ يحدثه ، فإذا لسانه يسبق بما لا يجرى مثله فى مخاطبة الخلفاء ، وإذا هو يقول له : يا هناه ، ثم يذكر أنه يخاطب الخليفة فيعود إلى ما يجب ، ويدرك أنه قد أساء فيقول : أيها الأمير ، إن عهدى بكلام الناس بمثل ما خاطبتك به لقريب ، فسبقنى لسانى إلى ما لم أرد .

وهكذا أثارت هذه غضبة السفاح فلم يترك له رأيا يدبره فيمضى مقتله كما أمضى مقتل أبى سلمة ، ولم يتركه يفكر فى ذلك الأمان الغليظ الذى أعطاه .

ولكن أبا جعفر الذى شارك فى هذا الأمر من قبل ، والذى لم يكن الغضب قد دخل إلى نفسه فأفسد عليه رأيه ، يأبى على السفاح أن يغدر ، ويأبى على السفاح أن يقتل رجلا كان له أمان وكان هو شاهده ، ويكاد يكون هو معطيه .

من أجل هذا راجع أبو جعفر السفاح كثيراً حين عزم أن يقتل ابن هبيرة ،ومن أجل هذا لم يلن أبو جعفر لأمر السفاح حتى استمع إليه يقول : والله لتقتلنه أو لأرسلن إليه من يخرجه من حجرتك ثم أتولى قتله .

وكنا نحب لأبى جعفر أن يخلص لأمانه ولا يتنكر له ، وما كان عليه أن يترك السفاح وما يريد فيخلص هو بشرفه وعهده ويدع السفاح يتمرغ فى إثمه وغدره .

ولكن أبا جعفر نظر إلى غيرها ، نظر إلى نفسه ، فهو لا يريد أن يعرضها للتلف ، وما هى بكبيرة على السفاح أن يقتل أخاً إن خالف عن أمره ، ونظر إلى دنياه ، فهو يريد أن ينال حظه من هذا الملك ، وما عليه أن يفرط فى شيء من معانى الخلق والوفاء ، من أجل هذا الذى يطمع فيه ، ولا ضير أن يمضى ابن هبيرة مقتولا كما قتل غيره ، أليس ملكاً لا تثبت قواعده إلا بالقضاء على مناوئيه ، أوليست حياة لا قانون فيها إلا ما يريده الغالب ، أو أليست دنيا لا حجة فيها إلا لمن تملك السيف والبطش ، ثم أليس الناس — الذين هم الشعب — هملا بين أيديهم لا ينكرون ولا يردون .

ولو أن الناس – الذين هم الشعب – كانوا على وعى ما شجع السفاح ، ولا ناصر أبو مسلم السفاح ، ولا لان أبو جعفر للسفاح ، ولكنها قسوة أخافت الناس ، استبداد بالأمر لم يملك الناس معه حقهم ، وخلت الحياة كلها للحاكم دون الناس ، فإذا الأمر على هذه الصورة التى لا أمن فيها ولا رأى ، ولا سبيل لمظلوم أن يدفع عن نفسه .

وهكذا مضى ابن هبيرة مقتولا ، قتلوه وقتلوا معه نفراً من مواليه كانوا حوله ، دخلوا عليهم فقتلوهم عن آخرهم ، لم ينج من شرهم إلا صبى لابن هبيرة كان فى حجره ، نحاه عنه حين هموا بقتله ، وهو يقول له : دونكم هذا الصبى .

ثم خر ساجداً فقطعوا عنقه ، ثم حملت الرؤوس جميعها إلى أبى جعفر ، يشفى غله ويرضى بها انتقامه ، ويروى بها نفسه الظامئة إلى الدم .

ولقد فر نفر عن ابن هبيرة من أصحابه ، ولكنهم لم يغنهم فرارهم ، فأخذوا يستأمنون ، استأمن منهم عمر بن ذر فقبل السفاح أمانه ، واستأمن منهم خالد بن سلمة فأمنه أبو جعفر : وكأن أبا جعفر أراد بالذى فعل حقاً هو له كما هو لغيره ، فلقد أمن زياد بن عبد الله عمر ابن ذر فلم يقل السفاح شيئاً ، ثم لعل أبا جعفر أراد شيئاً آخر ، ولا يبعد أن يكون هذا الشىء الذى أراده هو أن يكون وفيا بعض الشىء لأمانه الأول الذى أعطاه لابن هبيرة ، وأن تكون له حسنة تمحو سيئة .

ولكن هذا الشىء الذى خاله أبو جعفر حين لان للسفاح ولم يشأ أن يخالف عن أمره تبينه حقيقة ، فلقد أجاز السفاح أمان زياد بن عبد الله لابن ذر ولكنه لم يجز أمان أبى جعفر لخالد ، وما كان خطر

خالد أبعد من خطر ابن ذر ، إن صح أن لكليهما خطراً ، ولكن السفاح كان واجدا على أبي جعفر حين أخذ معه وأعطى في أمر ابن هبيرة ، وكان الخوف منه قد أخذ يدب في نفسه مخافة أن يكون يسعى لنفسه ويريد أن يستأثر بالأمر دونه ، لهذا رد السفاح على أبي جعفر أمانه وقتل خالداً ، يريد أن يهون من شأن أبي جعفر ، ويريد أن يفوت على أبي جعفر ما يريد ، إن صح أن أبا جعفر كان يريد شيئاً .

ولكن الذي لا شك فيه أن قتل ابن هبيرة كان نكراً من النكر ، وأن السفاح باء بإثمه ، وأنه خرج منه بما أراد أبو مسلم له أن يخرج به ، وأن الناس قد غضبوا لهذا القتل وضاقوا به ، وانطوت نفوسهم على شيء ، وجرت ألسنتهم بشيء منه ، يصور لك أبو العطاء السندي الشاعر شيئاً من هذا الذي انطوت عليه النفوس ، وشيئاً من هذا الذي جرى على الألسنة ، حين يقول وهو يرثي ابن هبيرة :

ألا أن عينًا لم تَجُد يَوْمَ واسِط ... عليك بِجارِي دَمْعها لجمُودُ
عشِية قام النَّائِحاتُ وصفقت ... أكُف بأَيْدِى مأْتم وخُدود
فإن تمس مهجُور الفِناء فرُبما ... أقام به بعد الوفود وفود
فإنك لم تبعد على متعهد ... بلى كل من تحت التراب بعيد

وما نظن السفاح وحده كان مطلق اليد والرأي فيما يفعل ويدبر ، بل كذلك كان آله من حوله وكان قواده ، يسرف آله كثيراً ، معتزين

بأنهم من هذا البيت الحاكم الآمر ، لهم مثل صاحبهم السفاح إن خلوا إلى أنفسهم ، ويسرف قواده محتجين بأنهم يؤيدون ملك صاحبهم ويثبتون أركانه ، يخوفونه الشر فيخاف ، ويجيزهم على ما يفعلون ، وهل كانت دماء الناس مما يحاسب عليها سافكوها فيتشدد القاتلون ولا يسرفون ، ويزدجر السفاح فلا يبيح ، ولكن الشيء الذى كان يؤبه له ويقام له وزن هو ذلك الملك ، فليبق وليذهب الناس .

(١١)

فلقد كان – على الموصل – مولى لخثعم يدعى محمد بن صول ، وكان الناس ، ومنهم ناس الموصل ، على عزة قديمة تملأ عليهم نفوسهم ، يقدرون الرجال بأنسابهم ، وهم أشغل بأقدار الرجال حين يكون الأمر لوال يليهم أو حاكم يحكمهم ، وهم من أجل ذلك برموا بابن صول ، وودوا لو استبدلوا به ، وامتنعوا عن طاعته ، وأخرجوه عنهم .

وما نشك أنها كانت كبيرة على السفاح ألا يرضى الناس ولايته عليهم ويخرجوهم عنهم ، ولكنا نشك فى أنها كانت كبيرة على الناس أن يقبلوا ما يخالف سنتهم فى الحياة ويجافى موروثهم .

وما خلق الولاة ليبدلوا الناس ويحاربوا فيهم مألوفهم وعرفهم ، ويحملوهم على بعض ما لا يحبون مما لا خير معه قسرا وعنوة ، ولكنهم خلقوا ليسوسوهم سياسة رقيقة حيناً عنيفة حيناً حتى يضمنوهم آخر الأمر على ما يحبون ، وليرعوا ما للناس حيناً إن كان مع الخير ، وليرعوا ما لهم حينا إن كان مع الخير ، فإذا هم آخر الأمر قد خرجوا بالناس عما لا يصلح إلى ما يصلح ، وإذا الناس بعد هذا قد التقوا مع الولاة على ما هو صالح كله . وما نظن أن ولاة السفاح كانوا قلة ليس منهم إلا ابن صول ، وما نظن السفاح كان فاقدا شيئاً لو أعطى الناس فى هذه ما يطلبون ، ولكنه الاستبداد المفرط والفساد المغرق اللذان

امتلأت بهما نفس السفاح ، فلم يشأ معهما أن يلين ويستجيب للناس بما يرضى الناس ولا يضيره فى شىء .

ولقد أرسل السفاح أخاه يحيى بن محمد والياً على الموصل عوضاً عن محمد بن صول ، لم يشأ أن يرد إليهم ابن صول ، لا لأنه مال إلى إرضائهم ، بل لأنه قصد إلى خداعهم وا لانتقام منهم ، ولو فعلها للأولى لا للثانية لكسب الناس على طاعته ، ولاستقبل ربه بصفحة نقية طاهرة ، ولكنه قاس عنيد ، لا قانون بينه وبين الناس غير هواه وما يريد .

وها أنت قد رأيت أن السفاح كان باستطاعته أن يرضى أهل الموصل حين أراد أن يولى عليهم ، وما مثله من كان يجهل ميول أهل الموصل ؟

وها أنت قد رأيت أنه كان بين يديه أخوه يحيى بن محمد ، ولم يكن الولاة قلة ، كما قلت لك ، وكان فى استطاعته أن يوليه الموصل أول ما أراد أن يولى .

وذهب يحيى بن محمد إلى الموصل فى اثنى عشر ألف مقاتل ، لم يظهر لأهل الموصل شيئاً ينكرونه ، ولم يعترضهم فيما يفعلون ، يظنون به خيراً ، وقد بيت لهم شراً ، ثم دعاهم فقتل منهم اثنى عشر رجلا ، اختارهم كما أراد أن يختار ، وقتلهم كما شاء أن يقتل ، لم يحتج عليهم بشىء ويترك لهم الفرصة يدفعون عن أنفسهم ، ولم يقم عليهم بينة ثم يخلى بينهم يدلون ببينتهم ، ولكنه ساقهم سوق الغنم إلى مذابحها ، يختار منها خيرها وأكثرها سدا للجوع وإشباعاً للمسغبة .

عندها لم تملك الناس أنفسهم فثاروا ، ثاروا لهذا العسف الذى يفقد أسبابه من رحمة ، ولهذا الظلم الذى لم يسبقه استماع لرأيهم ، ولهذا العنف الذى لم يصحبه ما يبرره .

ولكن يحيى كان مخادعاً ، وكان الناس لا يعرفون الخداع إلا صفة من صفات السفلة ، فاطمأنوا له يملون عن طبع طيب موروث.

وهكذا كانت النفوس فى جملتها منذ بدأ التاريخ تعيش على خلق ، وتحيا على موروث من تقاليد .

ومن أجل هذا كانت الشعوب مخدوعة فى الكثير من أحوالها ، تستجيب لأول قائل ، وتصبح لأول داع ، تظن الخير بالقائل فتحسن الظن بالداعى .

ومن أجل هذا كله ظلمت الشعوب هذا الظلم الكثير الذى امتلأت به صفحات التاريخ ، وهى هى لم تتحول عن طبعها ولم تتخلف عن موروثها .

ونادى منادى يحيى بن محمد فى الناس يدعوهم إلى أمانه ، فاستكانوا ولانوا ، وهل يظن الناس بالأمان إلا أنه أمان ، وهل ظن الناس بأمان رجل مثل يحيى بن محمد إلا أنه أغلى أمان .

ولكن يحيى بن محمد لم يعرف هذا الأمان إلا أنه خدعة من خدع الحرب ، على هذا جرأه أخوه السفاح ، وعلى هذا هو يجرؤ .

ولقد كان يحيى يملك جيشاً يقهرهم به فيملكهم دون أن يفسد أخلاقهم ويشككهم فى موروثهم .

وهكذا أراد يحيى كما أراد السفاح أن يملك الناس لا أن يسوس الناس ، فرق بين من يريد أن يملك ومن يريد أن يسوس ، فذاك لا يعنيه إلا أن يكون الناس له ، وهذا يعنيه أن يكون هو للناس ، ذاك يعنيه أن يعيش على الناس ، وهذا يعنيه أن يعيش بالناس ؛

والفرق بين ذاك وهذا ، هو أن أولهما يخلق أمة له ، وثانيهما يخلق أمة به ؛

والفرق بين الأمتين أن ثانيتهما أمة تحيا قوية عزيزة قاهرة غالبة ، مكتوب لها السيادة إلى الأبد ، وأولاهما أمة تعيش واهية ضعيفة ذليلة مغلوبة ، مكتوب عليها المهانة إلى الأبد ؛

وهكذا خدع أهل الموصل بأمان يحيى الذى كان نكراً من النكر ، [فلقد دعا المستأمنين لدخول الجامع ليؤكد لهم أنه جاد وأنه مستمسك بعروة من عرى الدين ،

ألا ليت يحيى إلى غير الجامع دعا المستأمنين ، فنى بيت من بيوت الله ، وفى مكان موصول بالله ، وعلى بقعة طاهرة يستظل فيها الناس بالأمن وينسون عليها الغدر ، كانت خيانة يحيى وغدره ؛

فما كاد الناس يجتمعون فى المسجد ، وما كاد يحيى يطمئن إلى أن الناس قد انقلبوا إليه بقضهم وقضيضهم ، حتى أعمل فيهم السيف لا يبقى ولا يذر ، يقتلهم قتلا ذريعاً ، فيه إسراف وفيه وحشية ، فإذا هم جميعاً قتلى ، وإذا المقتولون يبلغون أحد عشر ألفا ،

أى خلق كان هذا الخلق الذى عاش به يحيى ؟ وأية سياسة كانت تلك السياسة التى استنها يحيى ؟ وأى حكم هذا الذى كان يملى عنه يحيى ؟

إنه خلق هذا الحاكم الذي حدثتك عنه ، الذي يرى الناس له ولا يراه لهم ، وإنها سياسة ذلك السائس الذي يملك الناس عبيدا ولا يدعهم يملكونه سائساً عادلا ، وإنه حكم ذلك الطاغي الذي يملي عن هواه الطائش ولا يشرك الناس معه في الحكم .

ويخرج يحيي بن محمد مع الليل فيسمع صراخ النساء وعويلهن ، يندبن موتاهن ، فتضيق بهذا نفسه ضيقا آخر ، ويخاله ثورة عليه وكراهية بما فعل .

وكأني بيحيي بن محمد كان يريد النساء الموله‌ات المحزونات يقابلنه بالطبل والزمر والزغاريد .

وكأني به كان يريد أن تكبت كل محزونة حزنها ، وأن تنسى كل مصابة مصابها ، إرضاء لقسوته القاسية ، وإشباعا لغريزته المتوحشة .

ولكن أنى لهؤلاء المكلومات أن يفعلن ، وأنى لهذا الطاغية أن يرعوى .

فإذا هؤلاء المحزونات على صراخهن وعويلهن ، لا يتحولن عنه ، وإذا يحيي بن محمد يأمر فيقتلهن ويقتل معهن صبيانهن ، وإذا هذه المذبحة الرهيبة لا تهدأ أياما ثلاثة .

وهكذا أراح يحيي بن محمد أذنيه فلم يعد يسمع صوت شاكية ، ولا صرخة مكلومة ، ولا أنة محزونة .

ولكن للقصة بقية محزنة مضحكة ، تدلك على نفوس هؤلاء الناس الذين حكموا الناس .

يحكون أنه لما كان يحيي في اليوم الرابع ركب ، وبين يديه الحراب

والسيوف المسلولة ، فاعترضته امرأة وأخذت بعنان دابته ، فأراد أصحابه قتلها ، فنهاهم عن ذلك ، وتقدمت منه هذه المرأة وهي تقول له : ألست من بني هاشم ؟ ألست ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أما تأنف للعربيات المسلمات أن يطأهن الزنج ؟

ولعلك قد فهمت معي ما كان نصيب نساء الموصل بعد تلك الفتنة ، وما كان من امتهانهن على أيدى الزنج ، الذين كانوا فى جيش يحيى .

ويحكون أن يحيى أمسك عن جوابها وسير معها من يبلغها مأمنها ، حتى إذا كان من الغد جمع الزنج ، وهو يظهر أنه ما جمعهم إلا للعطاء ، فاجتمعوا ثم أمر بهم فقتلوا عن آخرهم .

أرأيت كيف فعل يحيى ؟ ثم أرأيت كيف كان الناس يعيشون ؟ ثم أرأيت كيف كان الناس يحكمون ؟ ثم أرأيت كيف كان الولاة يفعلون ؟

(١٢)

لقد كانت أسباب الحياة مواتية لهؤلاء الحكام أن يخلقوا أمة ، وكان بين أيديهم كتاب الله وسنة رسوله ، وفيهما أسباب الحكم القويم ، وفيهما خلق أمة كريمة عزيزة على حياة كريمة عزيزة ، معها المساواة ، ومعها الشورى ، ومعها الألفة ، ومعها المحبة ، ومعها العدل ، ومعها الرفق .

ولكن هؤلاء الحكام أنسوا هذا كله وذكروا أنفسهم ، فعوقوا هذه الأمة كثيراً عن أن تمضي ، وأوغروا صدرها كثيرا بما لم تبرأ منه حتى اليوم ، وتركوها على بقايا فرقة ، وعلى كثير من تخلف ، قعدوا بالشعب العربي عن أن يكون له وجوده الحق الناهض ، ولو قدر له أن يكون منذ وجد الرسول ، ومنذ وجد الخليفتان الأولان ، لمضى قدماً إلى الأمام دون تعثر ودون إحجام .

ولكنه كان خلافاً قديماً كتب على هذه الأمة العربية في جاهليتها ، كمن في النفوس فترة قصيرة حياة الرسول وحياة الخليفتين من بعده ، ثم ظهر على صوره تلك التي مرت بك ، والتي لم تخالف جاهليتها في شيء من سيادة مطلقة معها كل شيء وليس للناس فيها شيء ، سواء بسواء ، كما كان الناس في جاهليتهم كانوا في إسلامهم ، وما هكذا أراد الإسلام لهم الحياة .

أترى معي هل كان السفاح بعد الذى رأيت ، وبعد أن ثبت الله له ملكه ، وفلّ شوكة عدوه من الأمويين وممن شايعوا الأمويين ، أترى معي هل كان السفاح بعد هذا وذاك فى حاجة إلى أن يمعن فى قتل من بقى من بنى أمية ؟ وفى قتل من بقى ممن شايعوا بنى أمية ؟

لقد سمعنا بالحروب التى ثارت من قبل ، ورأينا الحروب التى تثور اليوم ، وسيرى الناس الحروب التى تثار بعد اليوم ، وما نظننا سمعنا أو رأينا أو سيرى الناس أن الحرب إبادة ، تبيد الأمة الأمة ، لا تترك منها شيخاً ولا كهلا ولا شابا ولا صبيا ولا رضيعاً ، ثم تمعن فتقتل النساء مخافة أن يكن قد حملن فى بطونهن نسلا يولد .

ولكن الأمويين أبوا ألا أن يفعلوا هذا أو مثله بالعباسيين ، وأبى العباسيون ألا أن يفعلوا هذا أو مثله بالأمويين .

وكنا نحسب أن الزمن إذا امتد بهذه الخصومة الآن من حدتها ، وأضعف من قسوتها ، وكنا نحسب أن العباسيين مع ما نالوا من الأمويين إسرافاً فى القتل قد شبعوا ، ومع ما نالوا من ملك قد قنعوا ، ومع ما مر بهم من هذا الزمن الممتد فى الخصومة قد لانوا ورجعوا ، ولكنا رأينا هذا كله مما مد لهم فى طغيانهم ، وزادهم عليه بأساً وعدواناً ؛

فلقد كان على مكة والمدينة داود بن على — ابن عم السفاح — عاملا له عليهما ، وكما كان السفاح كان إخوته وكان أولاد عمومتهم ، وكما امتدت يد السفاح فيمن حوله من الأمويين وأشياع الأمويين امتدت يد إخواته ويد أولاد عمومته فيمن حولهم من الأمويين وأشياع الأمويين .

وهكذا فعل داود بن علي ، فلقد جمع إليه الأمويين يريد قتلهم ، فانبرى له هاشمي من أولاد علي يريد أن يصرفه .

وكأن بهذا الهاشمي قد رده إلى هذا اللين ما يجده في نفسه على العباسيين حين انفردوا بالأمر دونهم ، فأصبح لا يحب لعدوهم ما يحبه له العباسيون من فناء وضعف ، يريد لهم في نفسه أن يكون لهم بقاء لعل هذا البقاء يغني الهاشميين ويعوض عليهم شيئاً .

فلقد علمنا أن الهاشميين كانوا أكثر استشهادا على يد الأمويين ، وأنهم على هذا كانوا أكثر موجدة على الأمويين وأكثر حقداً .

وما نظن عبد الله بن الحسن أراد أن يرد داود بن علي عما هم به رأفة بالأمويين ، ولكن بهذا الذي قدرنا .

ولكنا على هذا لا نخليه من بقية من رحمة وبقية من رأى حركهما في نفسه هذا الذي قدرنا أيضاً ، فقد كان بعيدا عن السلطان الذي أغرى العباسيين بهذا العنف ومكنهم منه ، وكان قد ألان منه ما نكب فيه فعز عليه أن ينكب الناس في مثله .

وبهذه النفس التي نالتها الرحمة شيئاً ، وانكشف لها الرأى شيئا ، تحدث عبد الله بن الحسن إلى داود بن علي يقول له : يا أخي ، إذا قتلت هؤلاء فمن تباهي بملكك ؟ أما يكفيك أن يروك غادياً ورائحاً فيما يذلهم ويسوؤهم .

ولكن الأسباب التي حركت الرحمة في نفس عبد الله بن الحسن لم يتهيأ مثلها في نفس داود ، والرأى الذي بدا لعبد الله بن الحسن في هدأة بال وغمرة يأس لم يبد مثله لداود بن علي .

من أجل هذا قال عبد الله بن الحسن ولم يسمع داود بن على ، وإذا به يقتل من اجتمع له من الأمويين ، لم يبق ولم يذر ،

لا محاكمة توجه فيها التهمة ويسمع فيها للدفع ، ولكننا قد أنسينا أنها تهمة عامة يشارك فى إثمها كل من كان أمويا ، حسبه أن يحمل هذا اللقب ، وحسب العباسيين أن يجدوه موصولا بهم ، هم بشىء أم لم يهم ، برئت نفسه مما كان فى نفس آبائه أم لم تبرأ ، فتلك خصومة الذئب للحمل ليس فيها إلا آكل ومأكول .

غير أن هذا الذى حرك عبدالله بن الحسن ليكون رحيا رائيا حرك مثله غيره ممن يملك أن يثور وممن يملك أن يجمع حوله جيشاً .

فما من شك فى أن هذا الإسراف فى القتل آذى الناس جميعاً ، منهم من كظم غيظه لا يقول شيئاً ، ومنهم من نفس عن غيظه يقول شيئاً على حيطة وحذر ، ومنهم من جرؤ على أن يعلن عما فى نفسه لا يبالى شيئاً ، لأنه يحب الحق ، ومن أحب الحق حمل فى سبيله ما يكره ، ومنهم من كان قويا بهذا الحق بمؤيدين له على هذا الحق ، وكان منهم شريك ابن شيخ المهرى ببخارى ، فقد آذاه هذا الإسراف فى القتل إيذاء شديداً ، ولقد كان شيعيا عباسيا يناصر العباسيين على الأمويين ، ولكنه رأى فى سيرة العباسيين ما يرده عن أن يكون لهم مواليا ونصيراً ، وأخذ يقول ، ويسمع الناس عنه : ما على هذا تبعنا آل محمد أن يسفكوا الدماء وأن يعملوا بغير الحق !

وهكذا بدأ ما كنا نخشاه على العباسيين ، وبدأ ما كان حتما أن

يكون، لو أن الشعب رزق الجرأة ولم يرزق الخوف ، ورزق الإيمان بحقه ولم ترده الرهبة عنه .

ولكن الشعوب بطيئة إلى أن تتجمع ، متفرقة الرأى إلى أن يتضح لها الرأى ، غير موحدة الكلمة حتى يلى كلمتها شجاع يحرك فيها الشجاعة الكامنة .

فما إن رزق هذا الشعب البطيء المتفرق الرأى ، غير الموحد الكلمة ، شريك بن شيخ ، حتى التف حوله ، واجتمع له أكثر من ثلاثين ألفاً .

ولعلك لم تلس منذ قليل ما كان مع مقتل ابن هبيرة من هبة أولى لهذا الشعب المهيض ، ولكنها لم تعد أن تكون كلمة قالها شاعر ، رددتها الألسنة ، وتغنت بها القلوب ، ثم هى تستحيل رأياً يدور فى الرؤوس ، وتجيش به الأنفس ، حتى امتلأ به رأس يملك حين يرى أن يدبر ، وحين تضطرب نفسه أن يثور ، ولقد كان شريك ابن شيخ .

ولكن أبا مسلم — وكان لا يزال قائد العباسيين الأول — كان لشريك بالمرصاد ، وكانت جيوشه أكثر من جيش شريك عدداً ، وكان الرأى الذى لف أنصار شريك حوله لم يكتمل مثله لغير شريك ، ولا لغير أنصار شريك .

من أجل هذا كان هينا على أبى مسلم أن ينفرد بشريك وأنصار شريك ، وأن يفرق جمعهم ، وأن يظفر بشريك فيقتله .

ولكنها كانت فتنه على كل حال ، والفتن لا تجيء عفواً وتمضى عفواً ، لا يقتلها البطش وإن بدت مقتولة بيد البطش ، بل هى كفورة

البركان قد تملك أن تتقى آثارها الظاهرة ولكنك لا تملك أن تتقى أسبابها الباطنة ، إلا إذا نفذت إلى باطن الأشياء عن وعى وشعور ، ولم تقنع بظاهر الأشياء عن جهل وغرور .

وما نظن العباسيين أول ما ملكوا كانوا الواعين الشاعرين ، ولكنهم كانوا الجاهلين المغرورين ، يرخى لهم فى جهلهم وغرورهم تراخى الناس عن حقهم وتفريطهم فيما هو لهم .

ولكن الناس — فيما نعلم — لا يلبثون أن يرتدوا إلى هذا الحق ، ويرتدوا عن هذا التفريط ، فتكون لهم تلك الهبات التى كانت أشبه شىء بالفهقات تظهر سريعاً وتمضى سريعاً .

وإن الرأى الذى خرج به شريك على السفاح فى بخارى خرج به أو بمثله بسام بن إبراهيم بن بسام فى خراسان ، لم يخرج به أو بمثله وحده وإنما خرج به معه جماعة ، وكان السفاح هو السفاح يغضه سيفه عن رأيه ، ويرده بطشه عن رفقه ، لأنه عرف الملك بأسلوب الجائر الضال ، ولم يعرفه بأسلوب الحاة العادل الهادئ ، ولأنه لم يأنس بقانون الله وقانون رسوله ، وإنما أنس بقانونه هو وقانون أسرته ، وما يضيره أن يسلم هو ويفنى الناس ، ولو ارتد إلى قانون الله وقانون رسوله لسلم هو وسلم الناس .

(١٣)

هذه الروح التى أملت على السفاح ما فعل أولا ، هى التى أملت عليه أن يتعقب بسام بن إبراهيم ، فبعث فى إثره خازم بن خزيمة ، ولقى خازم بساماً ، فقتل جملة كبيرة من أصحابه ونجى بسام هارباً .

ولكن خازم بن خزيمة هذا كان له بعد هذه حديث طريف ، لا يقل عن حديث السفاح طرافة ، يدلك على ما كان يدين به من هم حول السفاح من استهتار بالأرواح وبعد عن رعاية القانون الإنسانى .

فلقد مضى خازم بتعقب بسام بن إبراهيم ليظفر به ، وكان بسام قد مر فى منصرفه بقرية تدعى : ذات المطامير ، بها أخوال السفاح من بنى عبد المدان ، وكانوا خمسة وثلاثين رجلا ، معهم مثلهم من الأصحاب والموالى ، وما كان بسام يجهل هؤلاء ويجهل صلتهم بالسفاح ، وكانوا هم يجهلون أنه بسام الخارج على ابن أختهم السفاح ، فلم يسلم عليهم خازم ، ولم يتركها له هؤلاء النفر ، بل شيعوه بالشتم بعد أن جازهم ، فعل بسام ما يرضيه وفعل هؤلاء الناس ما يرضيهم ، وانتهى أمره وأمرهم عند هذا .

وإذا خازم بن خزيمة يطالعهم ويسألهم عن بسام ، فيخبروله

خبر هذا الرجل الذى مر بهم ، ويقولون له : مر بنا رجل مجتاز لا نعرفه فأقام فى قريتنا وقتاً ثم خرج عنا .

جواب يحمل عذره ويحمل حجته ، ولا لوم على أصحابه معه ، ولكن أصحاب خازم كان لهم أسلوب آخر يختلف عن هذا الذى نراه للناس كل الاختلاف : فالحياة مضطربة ، والنفوس مضطربة ، والعقول مضطربة ، ولا مكان بين هذا الاضطراب الشامل لرأى أو عقل .

فلقد هال أخوال السفاح أن يغلظ لهم خازم على غير تفريط منهم ، فأغلظوا له إغلاظاً بإغلاظ ، وكان حسبهم هذا .

ولكن أنى لقواد السفاح أن يكونوا على غير صورة السفاح ، وكيف لا يسرفون إسرافه ولا يبطشون بطشه ، على غير إثم وعلى غير جريرة ، فكما يكون الملوك يكون الأتباع ، وهكذا كان خازم صورة من السفاح ، فيها هذا الظلم كله ، وفيها هذا الجور كله .

ونكاد تكون عرفت ما فعل خازم ، وأكاد أجدنى محدثك بما عرفت حين أقول لك : إنه أمر بهم فضربت أعناقهم جميعاً ، وهدم دورهم ونهب أموالهم ، ثم انصرف آمناً مطمئناً وكأنه لم يفعل شيئاً .

ولعلك بعد هذا تحب أن تعرف ما انتهى اليه أمر خازم ، ولو لم يكن المقتولون أخوالا للخليفة السفاح لانتهى بى وبك الحديث عن خازم عند هذه ، شأن كثير غيرها لا ينظر فيها إلى

هول الإسراف فيحاسب عليه فاعله ، ولكن ينظر فيها إلى قدرة المسرف على إسرافه فيخاف لها فاعله .

فلقد سعى اليمانية إلى السفاح ينبئونه نبأ خازم ، ولقد هم السفاح بقتل خازم ، وكان واجباً عليه أن يفعل .

وكما كان لخازم بن خزيمة مع أول القصة حديث طريف ، كان للسفاح فى آخر القصة حديث طريف ، وهكذا بدأت القصة طريفة وسوف تنتهى طريفة ، فلقد دخل على السفاح نفر من قوم خازم حين علموا أنه هم بقتله ، فذكروا له سابقته وطاعته ، وذكروا له أنه خراسانى حمل مع الخراسانيين عبء الدعوة ، لم يذكروا للسفاح عن خازم شيئاً غير هذا يسقط عنه التهمة ويبرئه مما كان .

وحسب الرجل عند السفاح أن يكون من هؤلاء المشاركين فى الدعوة فتباح له دماء الناس وأرواح الناس وأموال الناس ، يأخذ منها كما يشاء وعندما يشاء .

وكأنى بالسفاح حين ذكر بالخراسانيين أفاق على شىء أزعجه ، وكأنى بهذا النفر من قوم خازم الذين دخلوا على السفاح لم يذكروا الخراسانيين ليرغبوا السفاح فى العفو عن خازم وإنما ليخوفوه من قتل خازم .

وهكذا ارتد السفاح عن قتل خازم خائفاً ، وما يضيره قتل أخواله ، وما يضيره أن تهدر الحقوق ، وما يضيره ألا يكون قصاص ، ما دام فى هذا كله أمنه ، وفى هذا بقاؤه .

وقد رد هؤلاء النفر السفاح عن قتل خازم بحيلة طريفة هي الأخرى ، بها تم طرافة القصة كلها ، فلقد قالوا للسفاح : إن كنت لا بد مجمعاً على قتله فلا تتول ذلك بنفسك وابعثه لأمر إن قتل فيه كنت قد بلغت الذى تريده ، وإن ظفر كان ظفره لك ، وأشاروا عليه أن يوجهه إلى من بعمان من الخوارج .

بهذا الأسلوب الطريف أشاروا على السفاح ، وبهذا القصاص الطريف أخذ السفاح ، وعلى هذا خرج خازم ليلقى الخوارج وليلقى القصاص العادل على ما قدمت يداه .

ولكن خازم بن خزيمة عاد منتصراً بعد أن قتل من الخوارج عشرة آلاف ، بعث برؤوسهم جميعاً إلى السفاح .

ومر عام وعام لم يهدأ فى هذا العام ولا فى ذاك السفاح ، ولم يهدأ فيهما قواده عن قتال وتقتيل ، فلم تكن الدولة العباسية قد استقام لها الأمر حين بدأت ، ولا استقام لها الأمر حين حكمت ، ولم تكن تعرف من أساليب الحكم إلا السيف ، فانصاع الناس لهم حين خافوهم ، وخرجوا عليهم حين ملكوا ألا يخافوا ، ورغب فيهم بين هؤلاء وهؤلاء نفر طامعون كان رضاهم عنهم يحركه هذا الطمع فيما بين أيديهم ، فهم راضون حيناً ، غاضبون حيناً .

ولو قدر للسفاح أن يستقبل الأمر بغير ما استقبله به ، فدعا إلى الجماعة بالرأى والقول ، ودعا إلى الحكم بالشورى والحكمة ، لجمع الناس حوله فعاش بهم ، ولم يفرقهم عنه فيعيش عليهم ،

من أجل هذا تعب السفاح فأتعب الناس ، ولو رد إلى غيرها لاستراح وأراح الناس . ولكن الأمر كان على كل حال أعصى على السفاح ، فهو لم يكن للناس يدلون فيه برأى فيدينون بهذا الرأى ويعملون له ، وإنما كان الرأى للسفاح وليس للناس فيه شيء ، فكان هذا الهيج الذى استقبله السفاح ، وكان هذا الاضطراب ، الذى لم يملك فيه السفاح غير أن يكون سفاحاً .

ولقد كان يملكه أن يكون سفاحاً عاماً وبعض عام ، ثم يرجع إلى الرأى والحكمة ، ولكنه أبى إلا أن يكون عنيفاً أيامه كلها ، باطشاً حكمه كله .

وهكذا كتب على السفاح أن يجمع الناس على خوف ، وأن يقضى على فتنهم مسرفا عليهم ، وأن يمضى بعد أربع سنين من هذا الحكم القاسى ليخلف هذه الدولة الناشئة ، التى أوشكت أن تخلص من المخالفين ، والتى أوشكت أن تستجيب للعباسيين عن ضعف وخوف ، ليتسلم مقاليدها من بعده أبو جعفر المنصور .

(١٤)

وكانت ثمة فتنة قوية عنيفة مضى السفاح ولم يقض عليها ،
فلقد مر بك شيء مما كان من أبى مسلم ، وما نجرد أبا مسلم
من إخلاص ، وما نبرئه من أطماع ، وما ندرى هل كان تراخيه
والسفاح حى لشيء من التدبير يمهد به لغيره حين يموت السفاح ،
أم هل كان هذا لأنه لا يريد أن يستبدل بإخلاصه خيانة وغدراً .

وأكاد أنصف أبا مسلم ، وأكاد أميل إلى أنه كان يحب
الأمن ، ويحب مع هذا الأمن شيئاً يعطاه على ما بذل من عون وجهد .

ولكنه كان قد دخل بين السفاح وأبى مسلم من باعد بين
السفاح وأبى مسلم ، فعاش السفاح على شك من أبى مسلم ، وعاش
أبو مسلم على خوف من السفاح ، فاستحال إخلاص السفاح
إلى مصانعة ومداورة ، يريد أن ينجو بحياته إلى أن تهيىء له الأيام
فرصة .

فلقد دخل أبو جعفر بين السفاح وبين أبى مسلم ففعل هذا ،
دخل أبو جعفر بينهما فى مقتل أبى سلمة حين خوف السفاح من أن
يتولى قتله فيثير عليه أبا مسلم ، ودخل بينهما حين أعطى أبو جعفر
الأمان لابن هبيرة ، ولما كتب السفاح لأبى مسلم يستشيره كتب

إليه بما ينقض على أبى جعفر أمانه ، فحقدها عليه أبو جعفر ، وما نظن أنه تركها دون أن يثير الشكوك فى نفس السفاح حول أبى مسلم .

وهكذا عاش أبو مسلم للسفاح وعاش السفاح لأبى مسلم ، وعاش بينهما أبو جعفر ، ولكن السفاح كان إلى أبى جعفر أميل ، وكان إلى رأيه مستمعاً ، وبدأ يخاف أبا مسلم وبدأ أبو مسلم يخافه ويحقد على أبى جعفر .

وكتب أبو مسلم — وكان على خراسان — إلى السفاح يستأذنه فى الحج ، وسرعان ما كتب السفاح إلى أبى جعفر — وكان واليه على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان : إن أبا مسلم كتب إلى يستأذننى فى الحج وقد أذنت له ، وهو يريد أن يسألنى أن أوليه الموسم ، فاكتب إلى تستأذننى فى الحج فآذن لك ، فإنك إن كنت بمكة لم يطمع أن يتقدمك .

فكتب المنصور إلى أخيه السفاح يستأذنه فى الحج ، فأذن له . فقال أبو مسلم : أما وجد أبو جعفر عاماً يحج فيه غير هذا ؟ وحقدها عليه .

وهذه النفرة بين أبى جعفر المنصور وأبى مسلم قديمة ، ترجع إلى قدوم أبى جعفر على أبى مسلم خراسان ، بعد ما صفت الأمور شيئاً للسفاح ، وكان معه عهد بالبيعة للسفاح وأبى جعفر من بعده . ثم عهد بولاية أبى مسلم على خراسان .

وما تخلف أبو مسلم عن البيعة للسفاح ، كما لم يتخلف عن البيعة لأبى جعفر ، ولكن أبا جعفر أحسّ من أبى مسلم استخفافاً بشأنه ، لا يحدثنا عنه المؤرخون كيف كان فتكون لنا فيه كلمة ، ولكنهم حدثونا أن أبا جعفر أحس هذا من أبى مسلم ، ولم يزيدوا .

وهكذا رجع أبو جعفر من خراسان واجدا على أبى مسلم مغيظاً منه ، وما كتم ذلك عن أخيه السفاح حين رجع إليه ، وما وقف عند ما كان وترك السفاح يتدبر ، بل أخذ يطلب من السفاح قتل أبى مسلم ، وهو يقول له : أطعنى واقتل أبا مسلم ، فوالله إن فى رأسه لغدرة .

ويقول له السفاح : يا أخى ، قد عرفت بلاءه وما كان منه .

فيقول له أبو جعفر : إنما كان بدولتنا ، والله لو بعثت سنورا لقام مقامه وبلغ ما بلغ .

فيقول له السفاح : كيف نقتله ؟

فيقول له أبو جعفر : إذا دخل عليك وحادثته ضربه أناس خلفه ضربة قتلته .

فيقول له السفاح : فكيف بأصحابه ؟

فيقول أبو جعفر : لو قتل تفرقوا وذلوا .

عندها يستجيب السفاح ويأمر بقتل أبى مسلم ، وما استجاب إلا بعد أن قر فى نفسه أن فى رأس أبى مسلم غدرة ، كما قال أخوه أبو جعفر .

ولكن السفاح كان لا يزال فى نفسه شيء مما قال أبو جعفر ،

وكان لا يزال فى نفسه شىء من إكبار أبى مسلم ، وكان فى نفسه شىء من الخوف من أصحاب أبى مسلم ، فما إن خرج أخوه أبو جعفر عنه حتى امتلأ رأسه بهذا كله ، وحتى أنسى أبا جعفر بالذى قال كله ، فعاد نادماً على ما قال ، وأرسل إلى أبى جعفر يأمره بالكف عن أبى مسلم .

بهذه بدأت العداوة بين أبى جعفر وبين أبى مسلم ، وبهذه بدأ الشك من أبى العباس السفاح فى أبى مسلم ، وبهذه بدأ أبو مسلم يحقد على أبى جعفر أولا ويخاف من السفاح ثانياً ، وبهذه وجد أبو جعفر مجال الدس فسيحاً فأوسع الخطا ، ووجد أبو العباس مجال الريبة فسيحاً فأسرع حيناً وتلبث حيناً ، ووجد أبو مسلم مجال الحيطة واسعاً فصال فيه وجال حتى نجا برأسه من السفاح ليستقبل به أبا جعفر .

وهكذا فسد هذا الرجل — أبو مسلم — على العباسيين ، أفسده أبو جعفر وأفسده السفاح ، وكان لا بد له هو من أن يفسد نفسه عليهم فأفسدها .

ولكنه لم يجد الفرصة مواتية له والسفاح حى ، فحاول أن يجدها والسفاح ميت ، فكان ما كان من حديثه الذى سأقصه عليك .

لقد انتهيت بك فى حديث الحج — أعنى حج أبى مسلم مع أبى جعفر — إلى هذا الذى قرأته منذ حين قريب ، انتهيت بك إلى أن أبا مسلم قال : أو ما وجد أبو جعفر عاماً يحج فيه غير هذا ؟ وكأنه كان يريد أن يترك خراسان ، وهى له ، إلى غيرها ليلقى

ناساً غير ناس خراسان ، واختار الحج ولم يعدل به ليضمن شيئين ؟

أولهما : ألا يكون منهما حين يختار النزول فى بلد ، وما كان يملكه أن يفعل إلا عن إذن الخليفة ، وما نظن الخليفة كان يأذن له ، فهو لم يغادر خراسان منذ وليها إلى هذه السنة .

وثانيهما : أنه مع الحج غير متهم ، وأنه مالك أن يفعل عن إذن الخليفة ، وما نظن الخليفة كان يرده عن حق مفروض .

ثم هو هنا — أعنى أبا مسلم — لاق الناس من شتى الأقاليم ، وواصل رأيه برأى الناس فى جو حر ومكان أمين .

لهذا كان أبومسلم حريصاً أن يحج ليهىء لأمره بعد استجمام ، وليلاقى الناس بعد أن كاد الناس أن ينسوه ، وليعرفه الناس حاجاً بعد أن عرفوه ظالماً غاشماً .

وكان حريصاً أن يحج وحده ليلى الموسم ويكون له الذكر فيه ، وإليها قصد أبو مسلم ، ولها كان يعمل .

من أجل هذا حقد أبو مسلم على أبى جعفر خروجه معه ، وما نظنه رآها من أبى جعفر عن غير تدبير ، وما نظنها لم تبلغه أنها من تدبير أبى العباس السفاح .

فلقد مر بك أن أبا مسلم كانت له عيون فى مقر الخلافة وبيت الملك ينهون إليه ما يرون وما يسمعون ، ولم يكن هؤلاء العيون بعيدين عن الخليفة ولا رجال الخليفة المقربين .

ثم انظر إلى السفاح كيف حاور أبا مسلم وداوره قبل أن يأذن له فى الحج ، وانظر إلى أبى مسلم كيف لاين السفاح وساهله ليبلغ معه ما يريد من إذن .

(١٥)

وفى هذا الذى سأقصه عليك من ذلك ما يزيدك إيماناً بأن صفحة السفاح كانت منشورة تحت عينى أبى مسلم يعلمها ، ولكنه كان يأخذ معه ويعطى ، فعل من يجهلها ، وكانت صفحة أبى مسلم هى الأخرى منشورة تحت عينى السفاح يعلمها جملة لا تفصيلا ، ويأخذ معه ويعطى فعل من يجهلها .

فلقد كتب أبو مسلم إلى السفاح يستأذنه فى القدوم عليه والحج ، إذ أنه منذ ولى خراسان لم يفارقها إلى هذه السنة . فكتب إليه السفاح يأمره بالقدوم عليه فى خمسمائة من الجند .

فيكتب اليه أبو مسلم : إنى قد وترت الناس ولست آمن على نفسى .

فيكتب إليه السفاح : أن أقبل فى ألف ، فإنما أنت فى سلطان أهلك ودولتك ، وطريق مكة لا يتحمل العسكر .

وهكذا عرف السفاح أبا مسلم وعرف أبو مسلم السفاح ، يمكر هذا بذاك ويمكر ذاك بهذا ، يعرف السفاح الخطر من مقدم أبى مسلم فى جنده ، ويعرف أبو مسلم الخطر من قدومه على السفاح فى غير جند كثير .

واستجاب أبو مسلم للسفاح ولكنه لم يستجب ، فقد صار أبو مسلم فى ثمانية آلاف من جنده ، ولكنه فرقهم فيما بين نيسابور ، والرى ، وقدم على السفاح فى ألف .

ولم يكن فى رأس السفاح شىء غير أن يأمن أبا مسلم ، ولم يكن فى رأس أبى مسلم شىء غير أن يأمن السفاح ، ولو استطاع السفاح أن يفوت الحج على أبى مسلم لفعل ، ولكنه استطاع أن يفوت عليه أن يلى موسم الحج ، وقد فعل ، وانتهى إليك علمه فيما مر بك .

وخرج أبو جعفر إلى الحج وخرج أبو مسلم ، وأخذ يفعل ما فوته السفاح عليه ، فإذا هو يكسو الأعراب ، ويصلح الآبار ، ويمهد الطريق ، حتى أصبح الذكر له ، واستطاع أن يُخمل أبا جعفر ، وانطلقت ألسنة الأعراب تقول : هذا المكذوب عليه ! تعنى أبا مسلم ، وتعنى أنه على غير ما كان يبلغهم عنه ، فلقد رأوا رحمة وإحساناً وبرا ، ولقد سمعوا عنه قسوة وغلظة وجفوة .

وصدر الناس عن الحج ، فإذا أبو مسلم يتقدم فى الطريق على أبى جعفر ، ويأتيه وهو فى الطريق خبر موت السفاح ، فيكتب إلى أبى جعفر يعزيه عن أخيه ولا يهنئه بالخلافة .

ويمضى أبو مسلم لا يرجع إلى أبى جعفر ، ولا يقيم حتى يلحقه أبو جعفر ، وهكذا بدأ هذا الحقد الكامن فى نفس أبى جعفر وفى نفس أبى مسلم يأخذ طريقه إلى العلانية ، يبديه أبو مسلم أولا فى هذا البذل الذى كان منه وهو يريد ، به أن يكبت أبا جعفر

وتخجله لتعلو كعب كعباً ، وهو يريد أن يجمع على حبه غير الخراسانيين ، ليزيد فى كبت أبى جعفر وإخجاله ، ويضيف إلى همه همّاً ، وإلى خوفه خوفاً .

ثم يبديه أبو مسلم ثانياً فى هذا الإعراض عن أبى جعفر بعد أن بلغه موت السفاح ، وهو يريد أن يلقى فى روعه أنه منصرف عنه فيحفظه ، وأنه قد يدعو إلى غيره ، وكان هناك أكثر من طامع فى هذا الأمر ، فيذله .

وأبداه أبو جعفر فى انحيازه عن أبى مسلم ، يحاول أن يمضى وحده ، وأن ينفرد دونه ، وأن يقضى مناسك الحج فى نفر ليس أبو مسلم منهم .

وأبداه أبو جعفر فى هذا الكتاب الغليظ الذى كتب به إليه ردّاً على كتابه الذى بعث به إليه يعزيه ولا يهنئه .

ولقد فات باأ مسلم أنه لم يفعل غير أنه حرك الحقد الكامن فى نفس أبى جعفر ، وغير أن أفسد البقية الباقية من قلب أبى جعفر .

يرى أبو مسلم أنه شفى نفسه ، وما عند هذه ينتهى كيد الكائد ، إن كان يريد أن يأمن عاقبة كيده .

فلقد كان على أبى مسلم أن يمضى إلى آخر المطاف ، ولا يعود بعد قليل تحت جناح أبى جعفر يواليه وينصره ، وكأنه لم يفعل به شيئاً .

ترى هل كان أبو مسلم ضعيفاً بأتباعه فارتد يوالى من آثار حقده ؟

أم تراه كان لا يرى أهل خراسان معه على البيعة لعبد الله بن على – عم أبى جعفر – وقد خرج بعد موت السفاح يريد الأمر لنفسه ، لهذا استخزى ولم يسترسل فى عداوته لأبى جعفر ؟

أم تُرى أبو مسلم كان داهية فى الحرب غير داهية فى الرأى ، وأن الذى كان منه من بلاء كان كما قال أبو جعفر وهو يحرض السفاح عليه : لفضل المدعو إليهم لا لقوة الداعى وحيلته .

وسترى تفصيل ذلك فيما سيتلى عليك :

قيل إن أبا مسلم بعد الذى كان منه ، استدعاه أبو جعفر ، فأقبل أبو مسلم إليه ، ورأى الجزع فى وجهه ، فقال له : ما هذا الجزع ، وقد أتتك الخلافة ؟

فقال أبو جعفر : أتخوف من شر عمى عبد الله بن على وشغبه على ، فقال له أبو مسلم : لا تخفه ، فأنا أكفيكه إن شاء الله ، إنما عامة جنده ومن معه أهل خراسان وهم لا يعصوننى ، فسرى عن أبى جعفر ، ثم بايع له أبو مسلم .

وكما قيل هذا قيل غيره ، فلقد قيل : إن أبا مسلم حين سبق فعلم بوفاة السفاح كتب إلى أبى جعفر : بسم الله الرحمن الرحيم ، عافاك الله ومتع بك ، إنه أتانى أمر قطعنى وبلغ منى مبلغاً لم يبلغه منى شىء قط ، وفاة أمير المؤمنين ، فنسأل الله أن يعظم أجرك ، ويحسن الخلافة عليك ، ويبارك لك فيما أنت فيه ،

إلى أن قال :

إنه ليس من أهلك أحد أشد تعظيما لحقك ، وأصفى نصيحة لك وحرصاً على ما يسرك ، منى .

ثم رأى نفسه لم يصرح ببيعة له فى كتابه هذا ، فعاد يكتب إليه بعد يومين من هذا الكتاب كتاباً آخر يصرح فيه ببيعته له .

وسواء أكانت الأولى أم الثانية ، فإن كلتيهما لين وكلتيهما إذعان ، وكلتيهما تنطق بغير ما بدأ به أبو جعفر من إهمال لأبى مسلم وإمعان فى خصومته .

ولعلك تحب أن تعلم هذا الخارج على المنصور ، وخبر أبي مسلم معه .

فحين مات السفاح أرسل عيسى بن موسى إلى عمه عبد الله ابن على يخبره خبر ذلك ويدعوه إلى البيعة لأبي جعفر ، وكان السفاح قد أمر بذلك قبل موته .

وما إن قدم الرسول على عبد الله بن على حتى جمع الناس إليه فأخبرهم بموت السفاح ثم دعاهم إلى نفسه .

ولكن الناس كانوا فى حاجة إلى ما يلفهم حول عبد الله ويصرفهم عن أبي جعفر ، وما نظنهم كانوا يعلمون وصاة السفاح ، وما نظن عبد الله أنبأهم بها ، وإلا كان غِرًّا .

وهكذا وقف الناس يستمعون إلى عبد الله كما استمعوا لغيره من قبله ، وكأن لهم فى الأمر شيئاً وما لهم فى الأمر شىء ، ولكنها حجج اعتادوا أن يسمعوها ، واعتادوا أن يعوها ، واعتادوا أن يصدقوها ، فلقد جربوا الويل وذاقوا المر ، وبودهم أن يريحوا ويستريحوا .

ولقد تعلموا ان الحجج ملزمة لهم وإن كانت باطلة ، وما تساق لهم ليناقشوها وإنما لتكون على الذين يخالفون عن أمرهم .

على هذا وقف الناس يستمعون ، ووقف عبد الله يخطبهم ، فكان مما قال لهم : إن السفاح حين أراد أن يوجه الجنود إلى مروان ابن محمد دعا بنى أمية فأرادهم على المسير إليه ، فقال : من انتدب منكم فسار إليه فهو ولى عهدى ، فلم يتتدب له غيرى ، وعلى هذا خرجت من عنده وقتلت من قتلت .

قد يكون فيها عبد الله صادقاً يريد أن يثبت حقاً يعتقده ، وقد يكون فيها غير صادق يريد أن يجعل هذا الملك من حقه ، ولكنه ثمن غال سوف يدفعه هؤلاء الناس على الحالين ، ما كان أغناهم عنه لو رد هذا البيت المالك إلى عقل ، ورد إلى منطق سليم ، ورد الى رحمة بالناس .

ولكنه كان عقلا يغلبه الطمع ، وكان منطقاً يفسده حب الدنيا ، وكانت رحمة بأنفسهم لا بالناس .

ولكن هؤلاء الملوك حين فسدوا فسد بفسادهم نفر من أولى الأمر حولهم ، فزادوهم غواية ، وزادوهم بعداً عن الحق ، وزادوهم على الناس بطشاً ، وبحقوقهم إغفالا ، فما إن قال عبد الله بن على ما قال للناس حتى انبرى من بين هذا النفر من أولى الأمر من يؤيد قوله ويشهد له .

فازداد بهم عبد الله قوة على الناس ، وازداد بهم الناس خوفاً من عبد الله .

فما أظن الناس صدقوا ولكنهم خافوا ، وما أظن الناس آمنوا له حين بايعوا ، ولكنهم أرادوا الأمن لهم فبايعوا .

ولكن الناس كانوا ضالين حين ظنوا الأمن فيما أرادوا به الأمن ، وقد خرج بهم عبد الله بن على يبغى هذا الملك خالصاً ، ويبغى أن يغلب عليه ابن أخيه أبا جعفر .

هذا ما كان من عبد الله ، فانظر إلى ما كان من أبى مسلم :

فلقد كتب أبو مسلم إلى المنصور يقول ، حين علم ما كان من خلاف عبد الله :

إن شئت جمعت ثيابى فى منطقتى وخدمتك ، وإن شئت أتيت خراسان فأمددتك بالجنود ، وإن شئت سرت إلى حرب عبد الله ابن على .

لقد كان أبو مسلم بعيداً عن خراسان لم يرجع إليها ، وهكذا أراد أبو جعفر له ، ولقد كان أبو مسلم يريد الرجوع إلى خراسان ، فجعل هذا مطلبا بين مطالب ثلاثة حتى لا ينبه المنصور إليه .

ولكن المنصور كان لبقاً فلم يفته هذا وأراد أن يمضى فى الإفادة من أبى مسلم دون أن يمكن له ، فاختار من بين هذه المطالب أعسرها على أبى مسلم وأنفعها له ، وأمره بالمسير لحرب عبد الله ابن على .

ولقد مضى عبد الله يقتل من الخراسانيين ، حين خشى ألا يناصحوه ، فخسر بذلك شيئاً ، وخرج على عبد الله نفر ممن أيدوه ، فخسر بذلك شيئاً آخر .

وخرج أبو مسلم للقاء عبد الله ، وكانت بينه وبين عبد الله حرب دامت خمسة أشهر ، تكون الكرة فيها لعبد الله ، وتكون الكرة فيها لأبى مسلم .

ثم مكر أبو مسلم وكان ماكراً فعرى ميسرته إلا من قليل من الأشداء ، ففعل أهل الشام فعله مخدوعين ، وكانوا جند عبد الله .

وما إن رأى أبو مسلم ما كان من فعلهم حتى أمر من فى القلب فحملوا مع من بقى فى الميمنة على ميسرة أهل الشام فحطموهم ، وأزالوهم عن مواقعهم وكانت الهزيمة .

وفر عبد الله بن على فأتى أخاه سليمان بن على بالبصرة وأقام عنده زماناً متوارياً .

وأقبل أبو مسلم على معسكر القوم فحوى ما فيه من غنائم وكتب بذلك إلى المنصور .

إلى هنا قد أدى أبو مسلم ما عليه ، وما نظن أبو جعفر يريد أكثر منها ، ومن هنا أخذ أبو جعفر يلتفت إلى أبى مسلم بعد ما فرغ من عبد الله بن على .

فما إن تسلم أبو جعفر كتاب أبى مسلم حتى بادر فأرسل مولاه أبا الخصيب يحصى ما أصاب أبو مسلم من العسكر .

وكأنى بأبى جعفر أراد أولا أن يتهم أبا مسلم فى أمانته ، فيضعضع من كبريائه ، ويهون من شأنه ، وأراد ثانياً أن يسلبه ثمرة النصر

فلا يدل بها ، وأراد ثالثاً أن يختطف من يدى أبي مسلم ما وقع فيها حتى لا يقوى به عليه .

وما نظن شيئاً من هذا كله ، أو بعض هذا كله ، فات أبا مسلم ، ولكنه لم يملك غير أن يغضب ، وقد غضب ، غضب على أبي الخصيب وهم بقتله ، فكلمه فيه الناس فخلى سبيله وهو يقول : أنا أمين على الدماء خائن فى الأموال !

ولقد عبر أبو مسلم بهذا القول عن تلك المعانى التى يعتز بها قائد مثله أبلى بلاءه أولا وآخراً .

ولكن أبا مسلم كان قد انتهى إلى حال عجب ، إن كانت هى حاله الأولى ، فقد دلنا على أنه يفقد التدبير ، ويفقد الرأى ، ويفقد تلك الصفات كلها التى أضفوها عليه من تدبير ورأى ودهاء وحزم .

فلقد رأيناه مع المنصور بين حالين لم نعرف على أيهما كان ، يستقيم للمنصور ، فعل المحبين ، ثم ينال منه فعل الكارهين ، لم يعرف له طريقاً بين هذين ، يريد أن ينال بحبه ويريد أن ينال بكراهيته ، فهو يخدع بالأولى المنصور ، إذا ما خلا به أو كتب إليه ، ويرضى بالثانية نفسه ومن على شاكلته إن خلا بهم وخلوا به .

فلقد أنس أبو جعفر بالمنصور حين كشف له عن إخلاصه ، ولكنه كان أنسا على حذر .

ثم يبلغ أبا جعفر المنصور ما كان من أبي مسلم ، وهو على

الجيش فى حرب عبد الله بن على ، من استهزاء بكتبه إليه ، فينقلب عليه غاضباً » .

فلقد كتب الحسن بن قحطبة ، إلى أبى أيوب ، وزير المنصور ، يقول له : إنى قد رأيت أبا مسلم يأتيه كتاب أمير المؤمنين فيقرؤه ثم يلقى الكتاب من يده إلى مالك بن الهيثم فيقرؤه ، ويضحكان استهزاء .

وكان الحسن بن قحطبة قائداً للمنصور على جيوش أرمينية ، وكان المنصور بعث به على هذه الجيوش لعون أبى مسلم فى حرب عبد الله بن على .

وما نظن المنصور أرسل الحسن بن قحطبة لهذه فقط ، وما نظنه كان يأمن جانب أبى مسلم ، وما نظنه كان يريد أن يخلى لأبى مسلم الجو فى هذا الميدان الجديد .

ولكنا لا نظن أن أبا مسلم كان يريد أن يهيء لنفسه مع عبد الله ابن على ، إذ كان عبد الله قد سبق فأساء إلى الخراسانيين ، حين شك فى أمرهم فقتل منهم سبعة عشر ألفاً ، وما قتل مثل هذا العدد أو دونه من الخراسانيين ، لشك قام فى رأس عبد الله ، بالأمر الهين عند الخراسانيين ، وما هم بناسيه له ، وما هم بمؤيدين من يؤيده .

والخراسانيون شيعة أبى مسلم ، وعليهم معتمده ، وما كان أبو مسلم غرا ليؤيد رجلا لن يؤيده قومه .

فأبو مسلم كان جاداً فى حرب عبد الله ، ليرضى بحربه الخراسانيين أولا وأبا جعفر ثانياً .

ولكنا نظن أن أبا مسلم كان مع هذا النصر — لو كتب له وحده — واجداً فرصته فى أن يكون على رأس جيش منتصر له الإمرة عليه ، وواجداً فرصته فى أن تكون بين يديه أسلاب تكون له قوة وعوناً .

من أجل هذا أرسل أبو جعفر الحسن بن قحطبة ، وهو بين شك ويقين ، ولكنه عمل بمنطق شكه .

فلما كان جواب الحسن بن قحطبة إلى أبى أيوب غلب شك المنصور يقينه ، وأرسل الخصيب ، لم يرد أن يكل هذا الإحصاء للحسن بن قحطبة فيثير فتنة بين القائدين فى الميدان ، قد لا تنتهى بما لا يحب المنصور ، ولكنه أرسل مولاه باسمه ليكون مكانه فى الميدان ، عندما لا يجد أبو مسلم حجته فى الفتنة .

ولكن أبا مسلم الذى لم يملك أن يثيرها فتنة ، ملك أن يبدى عن غضبه ، فأراد أن يقتل أبا الخصيب أولا ، ثم عدل ، لأن الأمر لم يكن له كله فيحس القوة ، فلقد كان إلى جانبه الحسن بن قحطبة بجيوش أرمينية ، وكان من ورائه المنصور بجيوش أخرى ، وكان أمره لا يزال قلقاً لا تغنيه هذه القلة التى كان أميراً عليها ،

إذ لم تكن من شيعته وليست قلوبها معه ، ولم تكن هذه الأسلاب قد آلت اليه فتمكن له .

ثم أبدى عن غضبه ثانية حين قال ، يعيب على المنصور ما فعل ! أنا أمين على الدماء خائن فى المال !

ثم خرج به غضبه إلى ثالثة فشتم المنصور .

(١٧)

وبهذا كله عاد أبو الخصيب إلى المنصور .

وبهذا كله طويت صفحة المسالمة التي كانت بين المنصور وأبي مسلم .

علم هذا المنصور وعلم هذا أبو مسلم ، غير أن المنصور عمل بما علم ، وما نظن أبا مسلم عمل بشيء مما علم .

فلقد بدأ المنصور يخاف رجوع أبي مسلم إلى خراسان فيؤلب عليه الخراسانيين ، فكتب اليه : إني قد وليتك مصر والشام ، فهي خير لك من خراسان .

فوجه إلى مصر من أحببت وأقم بالشام — وكان لقاء الجيشين بها ، أعني جيش أبي جعفر ، وعلى رأسه أبي مسلم ، وجيش عبد الله بن علي — لتكون بقرب أمير المؤمنين ، فإن أحب لقاءك أتيته من قريب .

هذا ما كتب به المنصور إلى أبي مسلم ، وهذا ما بدأ المنصور به ليضيق على أبي مسلم ، ترى ماذا كان من أبي مسلم وماذا بدأ به ؟ لقد بدأ هو الآخر يغضب ، وبدأ هو الآخر يحقق لنفسه نصراً .

غضب أبو مسلم فقال : يوليني الشام ومصر ، وخراسان لي !

وخرج أبو مسلم مجمعاً على الخلاف يريد خراسان .

وهكذا تكاشف الرجلان ، غير أن أبا جعفر كان يعرف ما يعمل ، وأبا مسلم لم يكن يعرف ما يعمل ، وكان أبو جعفر ماضياً فيما يريد أن يعمل ، وأبو مسلم متردداً فيما يريد أن يعمل .

فما إن وصل علم هذا إلى أبي جعفر حتى خرج من الأنبار إلى المدائن ، وكتب إلى أبي مسلم ينبئه أنه سائر إليه .

وهكذا عرف أبو جعفر ما يعمل بعد أن دبر ، فانظر إلى أبي مسلم ماذا عمل بعد ما دبر هو الآخر .

لقد رأينا أبا مسلم يكتب لأبي جعفر هذا الكتاب ، الذي أحب لك أن تقرأه :

إنه لم يبق لأمير المؤمنين — اكرمه الله — عدو إلا آمكنه الله منه ، وقد كنا نروى عن ملوك ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكتت الدهماء ، فنحن نافرون عن قربك حريصون على الوفاء لك ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة ، غير أنها من بعيد حيث تقارفها السلامة ، فإذا أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك ، وإن أبيت ألا أن تعطى نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضنا بنفسي .

فأبو مسلم قد علم أن المنصور فرغ له ولأمثاله ، بعد أن استتب له الأمر وانتهت الفتن ، التي كانت آخرها فتنة عبد الله ، وأبو مسلم يعلمنا من طرف خفي أنه رجل كان يحب الفتنة ليشغل بها نفسه

وليشغل بها أولى الأمر عنه ، وأبو مسلم كان بطلا ملحوظاً أيام كانت تلك الفتن على أشدها ، شارك فيها أولا وأعان عليها ثانياً ، وشغل بها أولى الأمر ثالثاً ، لا يكون مع السلامة أبدا .

فإذا ما اطمأنت الأحوال أو كادت ، وإذا ما بدا للدولة أن تستقيم سبيلها إلى الأمن ، لم تطب لذلك نفسه ، وكان ذلك الرجل القلق ، يأخذ ويعطى من المنصور ، يقبل عليه ويرتد عنه ، يدعو له ويدعو عليه ، يرفعه ويضعه ، وهو فى كل ذلك يملى عن ذلك الطبع المتقلب الغادر ، حتى إذا لم يجد غير المنصور يفرغ معه ما فى نفسه ، أفرغ ذلك كله مع المنصور على أنه أقل عنفاً وأقل انتقاماً ، لأنه لم يملك هذا العنف وذلك الانتقام ، فلقد كان قبل يمكر فيقتل ، ويداور فينكل ، ولكنه كان هنا ضعيفاً ، فملك أن يمكر ولكنه لم يملك ما كان يملكه مع المكر ، وملك أن يداور ولكنه لم يملك ما كان يملكه مع المداورة .

ولقد صرح أبو مسلم بخوفه من المنصور ، فلم يعد بعد يأمن جانبه بعد الذى كان منه إليه ، وهو يعرف سياسة الملوك مع من يكرهون ، فعل أبو مسلم منها شيئاً وأشار فيها بشىء ، من أجل ذلك اختار لنفسه أن يكون بعيداً على وفاء ، عبداً من عباد المنصور المخلصين .

ولكن أبا مسلم كان يعلم أن المنصور لن يعطيه هذه أبداً ، ولن يمكنه من الوصول إلى خراسان ، ولقد كان أبو مسلم هو نفسه يعلم أنه إن مكن له من هذه فسوف لا يكون وفيا ، وإنما كان

ذلك لوناً من ألوان المكر ، ولوناً من ألوان المداورة ، التى تغلى بها نفس أبى مسلم ، يقول وهو يظن أنه صادق حتى إذا ما خلا إلى طبعه وتكشفت عنه ما خافه ، وما ركب من أجله هذا المكر وتلك المداورة ، عاد لا يؤمن بالمثل ، ولا يرعى العهود ، ولا يلق بالا للأيمان .

ولم ياس أبو مسلم فى آخر كتابه أنه على بقية من أيد وقوة ، فختم كتابه بتلك الكلمات التى فيها تهديد ووعيد ، والتى كانت سيئة أخرى من سيئات أبى مسلم لدى أبى جعفر ، والتى كانت مثلا لأبى مسلم فى آخر حياته ، أو حين تكشفت حياته ، لا يدل على حنكة وإنما يدل على تعثر ، فالتهديد إن لم يصحبه ما يحميه كان عبثاً من العبث ، وتمكيناً لخصمك منك .

وهكذا علم أبو جعفر نفس أبى مسلم كما علمها أبو مسلم ، وقد أراد أن يمضى هو الآخر معه فى المكر والمداورة ، فقد يبلغ بهما قبل أن يبلغ بالقوة ، فكتب أبو جعفر إلى أبى مسلم :

قد فهمت كتابك ، وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم ، الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، فإنما راحتهم انتشار نظام الجماعة ، فلم سويت نفسك بهم ؟ فأنت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به ، وليس مع الشريطة التى أوجبت منك سمعاً ولا طاعة ، وحمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالة لتسكن إليها ان أصغيت ، وأسأل الله ان يحول بين

الشيطان ونزغاته وبينك ، فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من الباب الذى فتحه عليك .

وكأنى بأبى جعفر يعرض بأبى مسلم من حيث يريد أن يبرئه ، فأبو جعفر يعلم أبا مسلم مشاغباً مناوئاً ، عرف ذلك من أول لقاء تم بينهما ، وقد مر بك .

وعلم ذلك وصرح به حين خرج أبو سلمه على السفاح ، وأراد السفاح قتله ، فرده أبو جعفر عن ذلك ، وأشار عليه بأن يأمر أبا مسلم بقتله حتى لا يأخذها أبو مسلم عليه حجة ، وقد مر بك ، وأبو جعفر لا يؤمن لأبى مسلم بفضل فقد ذكر رأيه فيه للسفاح ، وأن ما كان منه كان بفضلهم وبفضل دولتهم ، وقد مر بك .

وأراد أبو جعفر أن يجهله فى آخر خطابه ، وأنه ينسبه إلى الزيغ واتباع الشيطان ، حتى يفل من عزمه ، فكتاب أبى جعفر لأبى مسلم نفاق من النفاق ومكر من المكر .

ولكنه على كل حال كان أسلوب هذا الزمان .

ولكن أبا مسلم لم يكن قد فقد البقية الباقية من عقله حتى يؤمن لأبى جعفر بما قال ، وحتى يستجيب لأبى جعفر فيما طلب ، فلقد عرف أن الأمر أصبح شرا كله ، ولم يعد فيه لصلح سبيل .

وهنا أظلمت الدنيا فى وجه هذا الرجل أبى مسلم ، وكان يظنها نوراً كلها ، وانسدت المسالك دون هذا الرجل وكان يراها

مفتحة دونه كلها ، فتضعضعت نفسه وهانت وكاد أن يلم بها اليأس .

والنفوس إذا بلغت ما بلغت نفس أبي مسلم ردت إلى جزع ، وإذا ردت إلى جزع استيقظ فيها الضمير ، وإذا استيقظ فيها الضمير تمثلت التأنيب ، وإذا تمثلت التأنيب ذكرت الله وعقوبته ، وإذا ذكرت الله وعقوبته ردت خاشعة منيبة ، وإذا ردت خاشعة منيبة لم تبال الحياة بخيرها وشرها .

وإلى هذا انتهت نفس أبي مسلم ، فلقد ذكر الله ولم يعد يبالي المنصور بوعده ووعيده ، فكتب إليه هذا الكتاب الذي هو صفحة جريئة مسجلة على العباسيين شيئا ومسجلة على أبي مسلم شيئاً ، وها هو ذا كتابه :

أما بعد ، فإني اتخذت رجلا إماماً ودليلا على ما افترض الله على خلقه ، وكان في محلة العلم نازلا ، وفي قرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم قريباً ، فاستجهلني بالقرآن فحرفه عن مواضعه ، طمعاً في قليل قد نعاه الله إلى خلقه فكان كالذي دلي بغرور ، وأمرني أن أجرد السيف وأرفع الرحمة ولا أقبل المعذرة ولا أقبل العثرة ، ففعلت توطئة لسلطانكم ، حتى عرفكم الله من كان يجهلكم ، ثم استنقذني الله بالتوبة ، فإن يعف عني فقدما عرف بالعفو ونسب إليه ، وإن يعاقبني فبما قدمت يداي ، وما الله بظلام للعبيد .

ولقد صدق أبو مسلم في شيء ، ولم يصدق في شيء » .

فما قتل السفاح من قتل من بني أمية تلك القتلة القاسية بكتاب الله ،
ولا قتل أبا سلمة غدراً بكتاب الله ،
ولا قتل ابن هبيرة ناكثاً بأمانه بكتاب الله ،
ولا قتل عماله من قتلوا بكتاب الله .

ولكن أبا مسلم لم يصدق حين أراد أن يصور نفسه المخدوع الجاهل بكتاب الله ، فليس كتاب الله عقدة من العقد يستعصى فهمها على الناس عالمهم وجاهلهم ، بل هو دين فطرى يعرفه الناس كلهم عالمهم وجاهلهم ، ما كان مع العقل والرأى والعدل فهو من كتاب الله ، وما كان مع الجهل والشطط والظلم فليس من كتاب الله ، وأين رجل له مسكة من عقل لا يستطيع أن يفرق بين ما كان عقلا وجهلا ، وبين ما كان رأياً وشططاً ، وبين ما كان عدلا وظلماً .

ولكن أبا مسلم قد استيقظ فيه ضميره ، كما قلنا فأخذ يتلمس لنفسه عذراً فيما كان منه ، قد يقنع به فيستشعر شيئاً من رضى الناس ، الذى أحس أنه محروم منه ، ويستشعر شيئاً من راحة النفس ، ونظن أنه كان يفقدها ، ثم آخر الأمر مدل بندمه مع النادمين لعل الله يتقبل منه ، كما رجا وطمع .

(١٨)

ومع هذا الندم وتلك التوبة وذلك التأنيب لم يعد أبو مسلم يبالي أبا جعفر وخرج مراغماً ومشاقاً .

وسار المنصور إلى المدائن يظن أنه يلقى أبا مسلم عندها ، ولكن أبا مسلم أخذ طريقه إلى حلوان .

وكان أبو جعفر لا يزال يميل الى حل لا دم فيه ، تحرجاً من الإثم ، لأن الرجل كان يجنح إلى العافية ، وتخوفاً من الحرب ، لأن الرجل كان لا يأمن العاقبة .

فقال لمن حضره من أهله : اكتبوا إلى أبي مسلم ، فكتبوا اليه يعظمون أمره ويشكرونه ويسألونه أن يبقى على ما كان منه وعليه من الطاعة ، ويحذرونه عاقبة البغي ويأمرونه بالرجوع إلى المنصور .

وبعث المنصور بهذا الكتاب مع أبي حميد المرورّوذي ، وقال له : كلم أبا مسلم بألين ما تكلم به أحداً ، ومنّه وأعلمه أني رافعه ، وصانع به ما لم يصنعه به أحد ، إن هو صلح ورجع إلى ما أحب ، فإن أبي أن يرجع فقل له : يقول لك أمير المؤمنين :

لست من العباس ، وإنى برىء من محمد ، إن مضيت مشاقاً ولم تأتنى ، إن وكلت أمرك إلى أحد سواى ، وإن لم أل طلبك وقتالك بنفسى ، ولو خضت البحر لخضته ، أو اقتحمت النار لاقتحمتها ، حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك ، ولا تقولن هذا الكلام حتى تيأس من رجوعه ولا تطمع منه فى خير .

وكأنى بأبى جعفر كان يحب العافية حقاً مع أبى مسلم عند هذه الغاية ، فما كان يعنى أبا جعفر إلا أن يذل أبو مسلم ، وها هو ذا قد ذل أو كاد ، وما كان يعنى أبا جعفر إلا أن يصفو الأمر له ، وها هو ذا قد صفا له أو كاد .

من أجل ذلك كان أبو جعفر جاداً فى عهده هذا الذى أوحى به إلى أبى مسلم ، ومن أجل هذا كان أبو جعفر حريصاً على أن يتم الأمر بينه وبين أبى مسلم على سلم على الرغم مما كان ، لأن أبا جعفر دلنا على شىء من خلق فيما سبق لك ، ودلنا على شىء من وفاء فيما عرفت عنه ، لا يرجعه عن هذا ما كان من حقد على أبى مسلم ، فالرجل لا تخليه الحياة من حقد ، ولكن العظيم من الرجال من لا تملكه الحياة بأحقادها ولا تدعه يبرأ منها .

ولقد سار أبو حميد إلى أبى مسلم بحلوان ، ودفع إليه الكتاب ، وكان أبو حميد أميناً على ما حمله إياه أبو جعفر ، حريصاً على ما حرص عليه أبو جعفر ، يريد أن ينتهى إلى سلم ، ولعله هو الآخر كان يرى ما يرى أبو جعفر ويحس إحساسه .

وحين دفع أبو حميد الكتاب إلى أبى مسلم قال له :

إن الناس يبلغونك عن أمير المؤمنين ما لم يقله ، وخلاف ما عليه رأيه منك ، حسداً وبغياً ، يريدون إزالة النعمة وتغييرها ، فلا تفسد ما كان منك .

وكأني بأبي حميد بعد هذا قد وجد من أبي مسلم لينا واسترخاء ، حسبهما عن تهيء للاستجابة ، فمضى يقول له :

إنك لم تزل أمير آل محمد ، يعرفك بذلك الناس ، وما ذخر الله لك من الأجر عنده في ذلك أعظم مما أنت فيه من دنياك ، فلا تحبط أجرك ، ولا يستهوينك الشيطان .

وفي الجديد من حديث أبي حميد جديد أيضاً من رأي أبي حميد ، فلقد خاض أبو حميد أول ما خاض مع أبي مسلم في حديث عام كله عما بين الرجلين — أعني أبا جعفر وأبا مسلم — من نفور وكراهية وتباغض ، وليست هذه كلها أموراً تنزرع في النفوس عفواً دون أسباب ، يظن الرائي ، بادئ ذي بدء ، أنها عن قيل وقال ، وكلام يكيد به الكائدون للمتاحبين المتعارفين ، وهم غير بعيدين عن شيء من الحقيقة ، ولكن الشيء الآخر الذي يجب ألا يفوت الرائين هو أن ما يقال لا يستمع له ، وأن ما يكاد به لا يصغي اليه ، إلا إذا كانت النفوس تحمل قبل ذلك سبباً هو غير ما يقول الناس وغير ما يكيدون .

ولقد كان السبب الذي تحمله نفس أبي مسلم لم يفت أبا حميد ، فهو لم يفرغ مما رآه عرضاً حتى أخذ فيما يراه أصلا .

وما نبرىء أبا مسلم من أنه كان طامعاً فى مزيد ، ولنبرىء أبا مسلم من أنه كان راغباً فى كثير ، يرى الأمر بفضله قبل أن كان بفضل العباسيين ، فلما رأى أنه قد زحزح عن دنيا العباسيين قليلا قليلا ، وأنهم كادوا أن ينالوها وحدهم ، غضب وكان فى كل ما كان منه يملى عن هذا الغضب يخطىء ويصيب ، وكان خطؤه أكثر من إصابته ، عرف هذا أبو حميد وذكره ، وعرف أنه قد بلغ بحديثه الأول من نفس أبى مسلم شيئاً فيما ظن ، كما عرف أنه لم يبلغ شيئاً آخر .

من أجل هذا أخذ أبو حميد فى حديثه الجديد يريد أن ينفذ إلى هذا السبب الجديد .

ولقد رأيناه ذكر أبا مسلم بأنه لا يزال أمير آل محمد ، وهو لقب لا تسبقه إلا الخلافة .

غير أن أبا مسلم جرب هذا اللقب فرآه اسما لا يحمل تحته شيئاً ، فكم من أمور قضيت دونه بعد أن آل الأمر إلى السفاح ، وما أقحم إلا فى أمور خاف السفاح مغبتها .

ولو أن هذا اللقب ناله أبو مسلم اسما ومعنى ما نظنه كان مدفوعاً إلى غضب ، وما نظنه كان مدفوعاً إلى حقد .

وكما عرف هذا أبو مسلم عرفه أبو حميد ، ولكنه لقب على كل حال له أثره فى النفوس ، وإن تجرد من معانيه ، فلم لا يلوح به أبو حميد ، ولم لا يرضى به طموح أبى مسلم .

هذا وأبو مسلم اليوم غير أبي مسلم بالأمس ، فلقد كان أبو مسلم بالأمس قوياً يحب هذا الاسم ومعناه ، وهو اليوم ضعيف قد يرضى بهذا الاسم دون معناه .

من أجل ذلك لوح أبو حميد بهذا الاسم ، لم يفته أنه ليس شيئاً ، ولكنه قد يكون فى نفس أبى مسلم اليوم شيئاً .

ثم إن أبا حميد أراد ألا يكون خادعاً ، وأراد ألا يفجأه أبو مسلم مهوناً من ذلك اللقب ، كاشفاً عما صار إليه ، فأخذ يزهده فى الدنيا ويرغبه عن أطماعها ، لا لشىء إلا ليجعل هذا اللقب دون معناه شيئاً يجب ألا يرده أبو مسلم ، ويجب ألا يستقله ، ويجب ألا يهون منه ، فلقد يكون فى هذا كله إحباط لأجره ، إحباط لما سبق له من عمل .

إلى هنا انتهى أبو حميد ، وظن أنه قد أغنى ، ولكن أبا مسلم كان رجلا قد دخل عليه اليأس فأبرمه ، ودخل عليه الضيق بنفسه فأزعجه ، ولم يكن قد انتهى إلى الزهد كله ، ولم يكن قد اطمأن إلى أبى جعفر الاطمئنان كله ، فيرضى الدنيا كما عرضها عليه أبو حميد ، من أجل هذا التفت أبو مسلم إلى أبى حميد يقول له :

متى كنت تكلمنى بهذا الكلام ؟

ولكن أبا حميد كان يملك على أبى مسلم حجة أخرى لم يشأ أن يضيعها ، ولم يشأ أن تفلت منه .

وكان أبو حميد كما قلت لك يملى عن روح يحب السلم ، ويحب أبا مسلم ، ويثق بعهد أبى جعفر .

فمضى أبو حميد يقول لأبي مسلم : إنك دعوتنا إلى هذا الأمر ، وإلى طاعة أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم بني العباس ، وأمرتنا بقتال من خالف ذلك ، فدعوتنا من أرضين متفرقة ، وأسباب مختلفة ، فجمعنا الله على طاعتهم ، وألف ما بين قلوبنا ، وأعزنا بنصرنا لهم ، أفتريد حين بلغنا غاية منانا ومنتهى أملنا أن تفسد أمرنا ، وتفرق كلمتنا ، وقد قلت لنا : من خالفكم فاقتلوه ، وإن خالفتكم فاقتلوني .

وهكذا كان أبو حميد رجلا من المسلمين قد أحب أن تلتئم كلمة المسلمين ، وحسبهم ما كان من فرقة دامية ، وأحب أن ينسى الأفراد ما لهم ، وحسب المسلمين ما لقوا من هذه الفردية المؤذية .

وغير هذا فلقد كان أبو حميد رجلا لم يرد خداع أبي مسلم ، لأنه ظن أن أبا جعفر لم يخدعه .

وكأني بأبي مسلم كاد أن ينسى عنفه الأول ، لأنه كان على تلك الحال النفسية التي وصفتها لك ، وكاد أن ينسى غدر الملوك ، لأنه وجد صديقه أبا حميد قد نسي غدرهم ، وأخذ ينصح له أولا .

ثم وجده قد اندفع حقا ، كان فيه جادا فيما يظهر ، وكان فيه مخلصا ، وكانت له فيه حجة على الناس وعلى أبي مسلم .

وأبو مسلم ، وغير أبي مسلم ، أحرص الناس على أن يكونوا مع الحق ، يراؤون به إن كانوا لا يؤمنون به ، ويجدون فيه إن كانوا به مؤمنين ، فهم على الحالين لا يخالفون عن الاستماع إليه إن كانوا من المرائين ، ثم عن العمل به إن كانوا من المؤمنين .

وما وجد أبو مسلم فى هذا الحق الذى قد ابتدعه أبو حميد ليحاجه به قولا ؛ لأنه أحس فيه أنه مدين إن خالف عنه ، وأحس فيه أنه غير مؤيد إن خرج عليه ، ثم أحس أنه مهدد تهديد المارقين . وكثيراً ما ابتدع أبو مسلم قبل اليوم هذا الحق ، وكثيراً ما جعل أبو مسلم الناس مارقين . وكثيراً ما قتل أبو مسلم من هؤلاء المارقين جملا كثيرة .

لقد حضر هذا كله فى ذهن أبى مسلم فرعاه وخشيه ، ووجد نفسه عاجزة عن أن تجيب ، وأكاد أقول خائفة من أن تجيب ، جواباً يمليه الصلف ويعقبه التلف ؟ وليس أفزع من السافكين ، ولا أخوف من القاتلين ، فهم قد هونوا على أنفسهم قتل الناس وسفك الدماء ، وكذلك هونوا أنفسهم على الناس وأباحوها لهم قتلا وسفكاً .

وهم على حيطتهم غير آمنين ، وفى حذرهم جد مروعين ؛ لأنهم عرفوا كيف يدخلون على الناس فى حيطتهم وفى حذرهم ، فهانت تلك الحيطة كما هان ذلك الحذر عندهم .

وحين خشى أبو مسلم لان ، وحين لان لم يجب ، وحين لم يجب التفت إلى زميل له يستشيره .

(١٩)

وما أشك فى أن أبا مسلم كان يطمع فى أن يجد زميله على خشيته فيجيب عن خشية ، ويستجيب أبو مسلم عن خشية ، ويخرج أبو مسلم من تلك المعضلة برأى زميله لا برأيه ، لأنه أحس أن فى الاستسلام مذلة ، فلم يشأ أن يذل القائد الأكبر بلسانه ، ولكنه أراد أن يذل بلسان الناس ، ليقال إنه استشار فأشير عليه ، وكان الرجل الصالح .

فالتفت إلى مالك بن الهيثم يقول له : أما تسمع ما يقول لى هذا ، ما كان بكلامه يا مالك ؟

ولكن الذى رجاه أبو مسلم فوته عليه زميله مالك بن الهيثم ، والذى أمله منه خيبه فيه .

لقد كان أبو مسلم صاحب الأمر كله ، يعرف جانبي حياته ، ما كان أولا وما كان ثانياً ، ولكن مالك بن الهيثم كان يعرف جانباً واحداً من حياة أبى مسلم ، وهو جانبها الأول ذلك الجانب الملىء بالزهو والكبر والعنف ، ولم يعرف جانبها الثانى ، المشرف على الذلة والانهيار والتداعى ، من أجل ذلك أجابه يرضى هذا الجانب الذى عرفه ، فقال له : لا تسمع قوله ، ولا يهولنك هذا ، فلعمرى ما هذا كلامه ، ولما بعد هذا أشد منه ، فامض لأمرك ولا ترجع ، فوالله لئن أتيته ليقتلنك ، ولقد وقع فى نفسه منك شىء لا يأمنك أبداً .

ولقد كان أبو مسلم حين استمع إلى ابن حميد بين طامع وخائف، وحين يجتمع الى الخوف الطمع في نفس الإنسان يغلب الطمع الخوف وينقاد المرء لطمعه ناسياً خوفه .

وهكذا غلب طمع أبي مسلم خوفه ، حين استمع الى ابن حميد وكاد يستجيب ، وطمع في أن يعينه على ذلك مالك بن الهيثم .

وحين استمع أبو مسلم لمالك بن الهيثم اختفى طمعه وبقي خوفه ، والنفس إذا لم تملكها إلا الخوف استجابت لما يؤمنها ، وإن هي استجابت لهذا استيقظت فيها أسباب العزة والامتناع ، وصورت لها على غير ما هي عليه ، فإن تكن قد وهت استحالت غير واهية ، وان لم يكن فيها شيء اجتمع فيها كل شيء .

وهكذا ثارت نفس أبي مسلم على قول ابن الهيثم ، وذكر أنه شيء ، ونسي أنه غير شيء ، فالتفت أبو مسلم إلى من معه يقول : قوموا ، ونهض ونهضوا معه .

غير أن تلك الثورة المصنوعة قلقة دائماً ، مترددة دائماً ، تثور وتسكن ، وتضطرب وتخمد ، إن ضمنت المعين لها لم تسكن ثورتها ، ولم تخمد اضطرابها ، وإن وجدت المعين عليها سكنت ثورتها وخمد اضطرابها .

وهي لذلك القلق وذاك التردد مغلوبة بالتفكير الطويل ، مدفوعة إلى طلب المشورة ، من أجل هذا أرسل أبو مسلم إلى زميل له آخر اسمه نيزك ، يعرض عليه ما كان يطمع فيما طمع فيه من ابن الهيثم أولا ، ويطمع في أن يجعل الناس معه حتى يكثر جنده ، إن هم بشيء .

وجاء رأى نيزك لا يخرج عن رأى ابن الهيثم، وإذا هو يقول له : ما أرى أن تأتيه ، وأرى أن تأتى الرى فتقيم بها ما بين خراسان، والرأى لك وهم جندك لا يخالفك أحد ، فإن استقام لك استقمت له وإن أبى كنت فى جندك، وكانت خراسان وراءك، ورأيت رأيك .

وهكذا استيقظت الثورة فى نفس أبى مسلم ثانية بعد أن كادت تهجع ، وعاد أبو مسلم يعرف الطمع ولا يعرف الخوف، واستقامت أمامه الطريق إلى الجرأة ، فدعا إليه أبا حميد ليقول له : ارجع إلى صاحبك فليس من رأيى أن آتيه .

ولكن فى جعبة أبى حميد شيئاً آخر قد ادخره إلى حين اليأس ، زوده به أبو جعفر حين أرسله .

وأبو حميد حريص على أن ينجح فى مهمته ، حريص على ألا يكون بين المسلمين خلاف، وقد جرب هو وأمثاله هذا الخلاف، حريص على ألا يعرض أبو مسلم نفسه للتلف فيما خال، ثم هو حريص آخر الأمر على ألا يفرط فى رسالة الخليفة ، وعلى أن يؤديها كاملة، وفى هذا الأداء وفاء للمرسل وأمن من غضبه ، ثم قد يكون فيه أمن لأبى مسلم أيضاً، وهو حريص على هذا كله .

وفى ظل هذا كله بدأ أبو حميد يحاور أبا مسلم ويداوره فقال له : عزمت على خلافه ؟

وهو يعنى أن يهدد ، فقال أبو مسلم : نعم ، فيقول له أبو حميد : لا تفعل، وهو يعنى أن يهدده أيضاً ، فيقول له أبو مسلم : لا اعود اليه أبداً .

وكأنى بأبى مسلم قد عاد يعلم أن هذا التلويح هو كل ما عند أبى حميد فاستشرى ، ونجد أبا حميد قد أحس هذا من أبى مسلم فتهيأ يصرح ، والتفت إلى أبى مسلم يقول له كل ما حمله إياه أبو جعفر ، مما مر بك .

عندها علم أبو مسلم شيئاً جديداً ، ودخل إلى نفسه خوف جديد غير ذلك الخوف الأول ، الذى أثاره فى نفسه ابن الهيثم ونيزك .

فلقد خوفه ابن الهيثم ، كما خوفه نيزك ، ليثيراه وليحركا فيه الحرص على حياته دفاعاً وحرباً ، ولقد خوفه أبو حميد ليكسره وليحرك فى نفسه رعباً يرده إلى جزع واستكانة .

وهكذا اضطربت نفس أبى مسلم بلونين من الخوف يتناقضان كل التناقض .

والنفس حين تخاف فتثور تكون مؤمنة بشىء وهما أو حقا ، ثم هى حين تخاف فتخنع تكون قد فقدت إيمانها بهذا الشىء وهما أو حقا .

وكانت نفس أبى مسلم قد انتهت الى الثانية وخلعت عنها الأولى ، فقد بدا لها أن أبا جعفر جاد ، ولقد بدا لها أن أبا جعفر يملك ، ولقد بدا لها أنها نفس واحدة تلقاء أنفس كثيرة .

عندها اختفى من نفس أبى مسلم وهمه الخادع المثير ليحل محله حق يمحو هذا الوهم محواً ، من أجل ذلك انخزل أبو مسلم لقول أبى حميد ، ومن أجل ذلك فزع أبو مسلم لقول أبى حميد .

وكان أبو جعفر المنصور قد كتب إلى أبي داود ، خليفة أبي مسلم ، بخراسان ، حين اتهم أبا مسلم : ان لك إمرة خراسان ما بقيت .

فكتب أبو داود إلى أبي مسلم : إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلا تخالفن إمامك ولا ترجعن إلا بإذنه .

دنيا تغرى الناس ولا تزال تغريهم لا يفكرون إلا فيما تمليه عليهم من نفع ، ولكنهم على ذلك قادرون على أن يلبسوا الباطل بالحق ، ويزيفوا على الناس أمورهم . وما بنا أن ننعى على أبي داود فعله ، ولا أن نناقشه الحساب ، ولكن الشيء الذى أحب أن أقوله لك لأصلك بحديث أبي مسلم ، هو أن كتاب أبي داود هذا وصل أبا مسلم على تلك الحال التى مرت به ، وكأنه كان شيئاً مرسوماً .

فازداد أبو مسلم هما ورعباً وفزعاً ، ولم تبق فى نفسه ذرة من خوفه الأول الذى معه الثورة والحرص ، وامتلأت نفسه بخوفه الثانى الذى معه الهلع والاستكانة والخضوع ، فإذا هو يرسل لأبى حميد يقول له : إنى كنت عازماً على المضى إلى خراسان ، ثم رأيت أن أوجه أبا إسحاق - يعنى صديقاً يثق به - إلى أمير المؤمنين ، فيأتينى برأيه ، فإنه ممن أثق بهم . وفى مثل هذه كان يطمع أبو حميد وإلى مثله سعى . لا يعنيه أن يتم على يديه أو على يدى غيره .

وما أراد أبو حميد أن يستذل الرجل فوق هذا فيصر على أن يكون الأمر له لا لابن إسحاق ، ولكنه وجد الرجل - أعنى أبا مسلم - يريد أن يعطى عن يد غير صاغر ، فأباح له أن يفعل

ما أراد ،فوجه أبو مسلم صديقه أبا إسحاق إلى أبي جعفر ، ومضى أبو إسحاق إلى أبي جعفر ، فتلقاه رجال المنصور بكل ما يحب عن أمر المنصور لا عن أمرهم ، فيما يبدو لى : فما أظن الناس ، من قرب منهم من المنصور ومن بعد كانوا يجرؤون على أن يصلوا حبلهم بحبل رجل موصول بأبي مسلم ، والفتنة بين أبي مسلم وبين المنصور على أشدها .

ولقى أبو إسحاق أبا جعفر ، وكما لقى رجال المنصور أبا إسحاق لقيه المنصور .

ولكن أبا جعفر كان مفزعاً هو الآخر فزع أبي مسلم ، ولكن فرق بين فزع وفزع ، فلقد كان فزع أبي مسلم فزع الرجل الضعيف ، فكان فزعاً لا يستره شيء ، وكان فزع أبي جعفر فزع الرجل القوى فكان يستره شيء ، ولكن الفزع على كل حال شيء يغلب الستر ، ويتخطى الحواجز ، فينكشف منه ما يدل عليه .

ولقد انكشف من فزع أبى جعفر من أبى مسلم هذا الشئ الذى دل عليه ، فلقد وجدنا أبا جعفر يقول لأبى إسحاق : اصرفه عن وجهه ولك ولاية خراسان ، ثم أجازه .

اثنتان لايدلان على خداع أبى جعفر بقدر ما يدلان على جزعه وفزعه ، فلقد أنسى أبو جعفر أنه ولى خراسان من قبل ذلك بقليل أبا داود ، وما نظنه كان يكذب حين كتب إلى أبى داود بذلك .

ثم هو إن كان فعل الذى يعرض ليخدع ، وكان لا يريد لخراسان هذا ولا ذاك ، وإنما كان يريد الإطماع ، فلقد دل عرضه على فزعه .

فما نظن أبا جعفر آنسى أن القادم عليه لم يكن بعيداً عما كان من أبى داود مع أبى مسلم . وما نظنه كان بعيداً عن الثمن الذى دفع لأبى داود ليكتب كتابه لأبى مسلم ، وهبه كان بعيداً فما هكذا تكون حيطة القادة ، وإذا جاز لك أن تشك فى حيطتهم جاز لك أن تشك فى أن الفزع قد دخل عليهم فأفسد عليهم حيطتهم .

بهذا نفسر ما عرضه أبو جعفر على أبى إسحاق تفسيراً بين

اليقين والشك ، فإذا ما عرفنا أن أبا جعفر زاد فأجازه نفسر ما عرضه أبو جعفر على أبى إسحاق تفسيراً كله اليقين ، وليس فيه شك ؟

فما هذا الإغراء الآجل والعاجل لرجل مثل أبى إسحاق،ليس إلا رسول رجل يطلب الأمن وينشد الوفاء ؛ وما كان هذا ليغيب على فطنة أبى جعفر، ولكنه كان فزعاً هو الآخر – كما حدثتك – فوعد وأجاز ؛ يضطرب فى الأولى اضطراب فزع ، ويهون فى الثانية هوان فزع ؟

ولقد رجع أبو إسحاق إلى أبى مسلم طامعاً فيما عند أبى جعفر ، فأحب أن يخلص له ، وكان غير طامع فيما عند أبى مسلم – إن كان ثمة عنده شيء – فتجرد عن الإخلاص له .

ولكن أبا اسحاق أنسى هو الآخر شيئاً ، أنسى أنه صديق لأبى مسلم ، آثره على غيره من الأصدقاء ، وأنسى أنه رسول والرسول مؤتمن .

ولكنها دنيا ، كما قلت لك ، غرت أبا داود ، وكان خليفة لأبى مسلم ، هو الذى استخلفه ورفعه،وغرت أبا إسحاق ، وكان ثقة عند أبى مسلم ، هو الذى وثقه ووجهه .

ورجع أبو إسحاق يقول لأبى مسلم : ما أنكرت شيئاً ، رأيتهم معظمين لحقك يرون ما يرون لأنفسهم ؟

وقد لنخدع مع المنخدعين بأبى إسحاق فنقول : إن الرجل حدث بما رأى ، وإن أبا جعفر زيف الحال ليراها أبو إسحاق كما أرادها أبو جعفر ، وهكذا حدث الرجل بما كان .

ولكننا لا ننخدع مع المنخدعين فى أبى إسحاق حين نعلم أن الرجل أعطى على أن يقول ما قال شيئان : ولاية خراسان ، ومال أجيز به .

وما نظنه إلا سمع وعيداً لا وعداً ، وما نظنه رأى إلا تهديداً ولم ير ترحيباً . ولكن الرجل قد أطمع بما ملأ حاضره ومستقبله فقال ما قال .

(٢١)

ولم يكن أبو مسلم جادا فى شيء مما كان منه أخيراً حين أرسل أبا إسحاق ، ولكنه كان خائفاً هذا الخوف الذى ملأه رعباً وفزعاً ، وكانت فى الرجل بقية من عزة ، فأراد ألا يسقط سقطة سريعة ، وإنما أخذ يمهد لتلك السقطة ويمد فى عمرها ، فأين حاله مع أبى حميد من حاله تلك ، وما بين الحالين وقت طويل .

ولقد أصبح أبو مسلم لا يصيخ إلا لرعبه ، يمنعه رعبه من أن يحتاط لنفسه ، ويمنعه رعبه من أن يستمع لمن استمع إليهم أولا ، هؤلاء الذين أثاروا فى نفسه خوفه الكامن .

فلقد كان اتصل بنيزك بعد أن حمل اليه أبو اسحاق ما حمل ، ولقد رأى فيه نيزك الخنوع والاستسلام ، فلم يشأ أن يكد نفسه فى غير طائل ، ولكنه كان على ذلك وفياً لرأيه الأول لم يشأ أن يخرج عنه جملة ، فقال لأبى مسلم : قد أجمعت على الرجوع ؟ فقال أبو مسلم : نعم .

ولكن أبا مسلم — كما قلت لك — كان قد هان ، وكان قد استسلم ، وكان قد ألقى حبله فى يد المقادير ، وهو الذى كان

حمله فى يده ، يدلك على ذلك قوله متمثلا ، وهو يمضى فى الحديث مع نيزك :

ما للرجال مع القضاء محالة ذهب القضاء بحيلة الأقوام

وهكذا وجد نيزك نفسه بين يدى رجل ليس له منة فيشد من منته ، وليس له عزم فينفخ فى عزمه ، بل وجده رجلا قد استسلم للقدر كما تستسلم الصخرة للموج .

ولكن نيزك على هذا كان يجد فى أبى مسلم بقية من شر وبقية من غدر ، لو حركتا فيه أثارت سائره ، وكان يجده فى يأسه من الحياة يحرص على الحياة ، فكان فى حاجة إلى من يوقظ فيه هذا الحرص ليغلب به ذلك اليأس .

وهكذا عنّ لنيزك أن يعبد الحياة لتلك الصخرة علها تستطيع شيئاً ، فالتفت إلى أبى مسلم يقول له ، بعد أن عرف أنه راجع إلى المنصور : إذا عزمت على هذا فخار الله لك ، احفظ عنى واحدة : إذا دخلت عليه فاقتله ثم بايع من شئت ، فإن الناس لا يخالفونك .

مشورة غادرة من نيزك توائم تلك البيئة الغادرة ، ورأى ماكر كان صورة من تلك الصور الماكرة . وما كانت الحياة إلا هذا الغدر وذاك المكر . بهذا عبد طريقها أبو مسلم للعباسيين ، وبهذا عبد طريقها العباسيون لأنفسهم ، وبهذا أراد نيزك أن يعبد طريقها لأبى مسلم .

ولكن أبا مسلم كان قد استرجع شيئاً ، وامتلأ ندماً على ما فرط منه ، وكان قد مل الحياة شيئاً فلم يعد يحس نشاطاً للحياة ، وكان قد فقد ثقته بالناس لأن الناس عاشروه على خوف ولم يعاشروه على حب ، فلما بان ضعفه أو كاد بدأ كرههم له أو كاد .

وسكت أبو مسلم لم يقل شيئاً لنيزك ، ثم كتب إلى المنصور يخبره أنه منصرف إليه ، وما كان أبو مسلم فى مسيره هذا مطمئنا ، ولكنه كان كما أحس مسوقاً بقضاء الله إلى قضاء الله ، فترك أمره إلى هذا القضاء .

وسار أبو مسلم إلى المنصور ، سيراً لا يمليه تدبر ولا يمليه حذر ولا يمليه أمل ، ولا تدفع اليه إرادة ، ولكنه كان سيراً عن وحي خفي وإلهام باطن وشعور مستور . وهكذا كان أبو مسلم مسيراً لا مخيراً ، والمرء إذا امتلأت نفسه بهذا الوحي وذاك الإلهام وذلك الشعور لم يعد يغني مع هذه كلها حذر ولا تدبير .

وتكلم أبو مسلم مع قائد من قواده كلام الحي الميت فقال له ، وهو يستخلفه على جنده : أبا نصر ، أقم حتى يأتيك كتابي ، فإن أتاك مختوماً بنصف خاتم فأنا كتبته ، وإن أتاك بخاتم كله فلم أختمه .

ولكن ، ما بال أبي مسلم أوصى أبا نصر بما أوصاه ؟

ترى ، هل كان يدبر لثورة إن مات مقتولا ؟

ما نبرئه من هذه ، وما نظنه أنه كان لا يعلم أنها ثورة فاشلة إن وقعت ، ولكنها بلبلة على كل حال أحب أن يجعلها ثمناً لقتله حتى لا يظن المنصور أنه كان غير شيء ، ولا أقل من أن يمضى أبو مسلم بشيء .

غير أن الذى نراه فى هذه الوصية شيء آخر ، كان هو ما يرمى إليه أبو مسلم ، وكان هو ما يبغيه ، فلقد كان لأبى مسلم بين يدى أبى نصر ما لك بن الهيثم متاع ومال ، ولقد خاف أن يختطف المنصور هذا المتاع وذاك المال بعد أن يختطف روحه ، ولقد رأى أبو مسلم أن يحرم المنصور ماله ومتاعه إن أبيحت له روحه ، ولقد شاء أبو مسلم ألا يعطى المنصور راحتين وحسبه راحة واحدة إن قتله .

من أجل ذلك أوصى أبو مسلم أبا نصر ، ومن أجل ذلك سار أبو مسلم أبا نصر بهذا الرمز ، وسنعلم هذا بعد قليل .

وورد كتاب أبى مسلم على المنصور ، كتابه هذا الذى بعث به إليه يخبره أنه قادم عليه ، ودفع المنصور كتاب أبى مسلم إلى وزيره أبى أيوب ، وكان لأبى مسلم خصيا ، يرى حياته فى حياة المنصور ، ويرى فى ظفر أبى مسلم بالمنصور ظفراً له ، وما خفى على المنصور ما فى نفس أبى أيوب ، من أجل ذلك ألقى إليه كتاب أبى مسلم .

ولو أراد المنصور لأبى مسلم خيراً لاختار غير أبى أيوب رجلا

يشير عليه في أمر أبي مسلم ، ولكنه أراد بأبي مسلم شرًا فلم يختر من الناس غير أبي أيوب .

وأخذ أبو مسلم يقطع الطريق إلى المنصور ، وأخذ المنصور وأبو أيوب يعدان العدة لاستقبال أبي مسلم .

ولكن الملوك أقوياء وضعفاء ، تمتلىء أيديهم بالعتاد كله ، وهم على ذلك يظنونها صفراً من هذا العتاد كله ، هذا حين لا يكونون مع الحق ، وحين يغدرون ، وحين يظلمون ، وحين يجورون ، فيحسون الخور والجزع ، ويصور لهم الخور والجزع خصمهم شيئاً وقد يكون غير شيء ، فهم لذلك يأخذون في الحيلة ويأخذون في المداورة ويأخذون في الخداع ، يؤثرون هذا الباطل كله على أن يكونوا صرحاء شجعان يبادون خصمهم علانية وفي وضح النهار .

لقد كان أبو مسلم فرداً ، وكان سيقدم على المنصور فرداً ، ولكنه مع ذلك أرهب المنصور وأرهب أبا أيوب ، وخاف المنصور وخاف أبو أيوب هذا الرجل الفرد ، فرجعا يحتالان ويداوران ويخادعان .

ولكن المنصور كان قد ترك هذا كله لأبي أيوب ، فلقد حركه إليه حين أعطاه الخطاب .

وخرج أبو أيوب يلتمس المعينين على الغدر من ذوي الحاجات ، وما أكثرهم حين يفسد الملوك على الناس ضمائرهم وذممهم ونفوسهم بمتاع الحياة .

خرج أبو أيوب يلتمس واحداً من هؤلاء، فوقع على رجل يدعى سلمة بن سعيد بن جابر . فقال له : هل عندك شكر ؟ وهو يريد منه أنه سوف يجزى النعمة خدمة ، وأنه سوف يدفع ثمن ما يعطى .

ولقد حرص الناس فى تلك الأيام على أن يقبلوا النعمة والعطاء لا يسألون عما سيدفعون ، وكانت النعمة عندهم شيئاً أغلى مما يدفعون ، وأكبر الظن أنهم كانوا يعلمون ما سوف يدفعون ، فما كانت النعم تشترى إلا بغدر أو شيء يفحش عن الغدر ، وكانت نفوسهم أسمح ما تكون بهذا الغدر أو ما يفحش على الغدر ، ولكنها كانت تجده شيئاً مستساغاً ، وتجده أسلوب الحياة ، وتجده إرضاء لأولى الأمر ، وتجده آخر الأمر وسيلة استلامتهم إن أرادوا الحياة .

لهذا كله قال سلمة : نعم ، وارتقب من أبى أيوب ما سيعطى ، وارتقب من أبى أيوب ما سيطلب .

وما كان لأبى أيوب أن يبى فى عرض ما سيعطى ، وأن يبى فى عرض ما يطلب ، وقد وجد أذن الرجل واعية ، ونفسه راضية ، وقلبه متفتحاً .

وأخذ أبو أيوب يقول ما يريد ، ولكن أبا أيوب كان على هذا ماكراً ، لم يسلك إلى غرضه مسلكاً صريحاً ، وما كان عليه إن سلكه ، فهو قد أمن أن الرجل طيع فى يده مستجيب له ،

ولكن الرجل كان على هذا يحرص على ألا يشترى جهراً ويباع علانية ، بقية من خلق ، وإن شئت سميتها بقية من تظاهر بالخلق ، يريد هؤلاء المأجورون أن يظهروا بها .

من أجل هذا ترفع أبو أيوب فى أسلوبه ولم يتدن ، ومن أجل هذا ترفع سلمة بن سعيد فى إجابته ولم يتدن ، وجرى ما بين الاثنين على هذا النحو النبيل .

يعرض أبو أيوب على سلمة ولاية من الولايات غنية بخيراتها ، ويقبل سلمة قبول المرغوب فيه ، وهو يعرف لما اختير من بين عباد الله لهذه الولاية ، ويسأله أبو أيوب أن يجعل لأبى مسلم نصفها تكرماً من سلمة إن آلت اليه ، ويقبل هذا سلمة تكرماً منه ليجازى أبا أيوب على صنعه .

ويعود السائل مجيباً والمجيب سائلا ، فيسأل سلمة أبا أيوب : ولم أردت ان تخص أبا مسلم بهذا ؟ فيقول له أبو أيوب : لأن أمير المؤمنين يريد أن يوليه ويريح نفسه . ويسأل سلمة : ومن لى بهذا ؟ فيجيب أبو أيوب : سوف أستأذن لك على المنصور لترفع إليه ما تريد .

وكأنى بالقارىء لما ينكشف له ما بين هذا السؤال وذاك الجواب ، وكأنى به لما يعرف مضمره .

والحديث الذى مر بين أبى أيوب وبين سلمة إلى تلك الغاية خير كله جميل كله ، ولكنه لم يكن إلا هذا التمهيد الذى يدخل

به الشارى إلى نفس البائع ، والذى يحبه البائع ليتنزل عما يبيع غير مشين ولا معيب .

وإذ كان أبو أيوب قد انتهى من تمهيده ، واطمأن سلمة إلى أنه لم يشن ، بدأ أبو أيوب يقول : وعليك أن تلقى أبا مسلم فى الطريق وتكلمه أن يجعل هذا فيما يرفع من حوائجه إذا دخل على المنصور .

هنا يبدأ البيع والشراء ، فأبو أيوب يريد أن يطمئن أبا مسلم أن الطريق إلى رضى أبى جعفر عنه معبد ، وأبو أيوب يريد أن يحمل هذا رجل ممن لا يظن أبو مسلم بهم شرا ، وأبو أيوب يريد أن يحمل هذا رجل راغب فى هذا الخير حريص على أن لا يفلت منه ، ثم هو بعد هذا غر يظن أن ثمن ما سيأخذ هو حمل أبى مسلم على أن يقبل .

فهو من أجل هذا سوف يقول عن إيمان ، وسوف يجهد عن هذا الإيمان ، وسوف يكون طعما سائغا مغريا ما نظن أبا مسلم ينثنى عنه أولا يلتفت إليه .

ولقد مهد أبو أيوب لسلمة ليلقى المنصور فلقيه ، وحمله المنصور سلامه وشوقه إلى أبى مسلم ، فاستقامت تلك الأمنية فى نفس سلمة ولم يبق إلا أن يفعل ما عليه .

وخرج سلمة جاداً فرحاً ليلقى أبا مسلم ، ولقد لقى سلمة أبا مسلم بهذه النفس الحادة الفرحة . وكان أبو مسلم ذا نفس أظلمت باليأس ، يفعل فيها أى بريق من أمل ، فما إن لقيه سلمة وأخبره بما كان حتى أشرقت نفسه وطابت ، إشراقاً لم يقع على غيره فيعرف أهو عن نار أو نور ، وطيبا لم يأنس بسواه فيعرف إلى أية الراحتين هو ، ولقد كان قبل ذلك كئيباً حزيناً فأصبح مسروراً ، ولم يزل مسروراً حتى قدم على المنصور .

أرأيت كيف اشترى أبو أيوب ، ثم أرأيت كيف باع سلمة ، ثم أرأيت كيف يكون الملوك فى سلطانهم ضعفاء أمام من لا سلطان لهم ، حين يكونون غادرين لا منصفين ، وجائرين لا عادلين ، ومع الباطل لا مع الحق ؟ يهولهم الشيء الصغير ، ويوجسون شراً من الحقير ، ويمعنون فى التدبير وكأنهم يدبرون لأمر خطير .

ولقد .... أبو أيوب بدوره فأعده أحسن إعداد ومثله خير تمثيل ، وبقى للمنصور دوره فلننظر ما هو فاعل .

كان أبو أيوب رعية وكان المنصور خليفة ، وكان أبو أيوب يعطى ويأخذ ، وكان المنصور يعطى ولا يأخذ ، وكان أبو أيوب يطمع فى الخير ويخاف الشر ، وكان المنصور لا يطمع ولكن يخاف ، وكان أبو أيوب يعرف الغدر ويتقن أساليبه ، وكان المنصور يكره الغدر أكثر مما يحبه ويضطرب بين أساليبه ؟

فما إن وقع له أبو مسلم حتى ذكر أنه خليفة فاعتز ، وذكر أنه حنق فعليه أن يأخذ لنفسه ، وذكر أنه آمن فلم يخف ، وكان الغدر له من كراهيته نصيب ، ومن حبه نصيب ، فجعل هذا الذى من حبه يطغى على ذاك الذى من كراهيته ، وجلس لأبى مسلم

يحاكمه ليفحمه وليدفعه بالحجة، حتى إذا ما أخذه أخذه بحق ولم يكن غادراً .

ولقد كان المنصور رفيقاً بخصمه أول الأمر لم يشأ أن يفزعه ، أو أن يأخذه على غرة ، لأنه أحب ان يجلس اليه آمناً فيعاقبه هادئاً ، ويناقشه مطمئناً فيحاسبه ، يجد في هذا كله راحة وشفاء ، فما قتل أبي مسلم يشفي نفس المنصور ، ولكن الذي يشفيها هو أن يفرغ المنصور ما انطوت عليه نفسه من إحن وأحقاد لم يسعفه الزمن يوماً ليواجه بها أبا مسلم ويعلنه بها .

من أجل هذا مهد المنصور لأبي مسلم ليلقاه ويجلس اليه آمناً هادئاً مطمئناً ، فما إن دخل عليه وقبل يديه حتى أمره أن ينصرف ويروح نفسه لثلاثة ، ويدخل الحمام .

وانصرف أبو مسلم يفعل ما أمره به المنصور ، وما نظنه أنسى بهذا خوفه كله ، فلقد جرب مثلها من قبل .

وحين خرج أبو مسلم ليتهيأ لشيء يظنه أمناً ، خلا المنصور لنفسه يعدها للدوره الذي سيقوم به .

فدعى اليه أربعة من الحرس وألقى اليهم شيئاً .

ثم أرسل إلى أبي مسلم يستدعيه .

ودخل المسكين على المنصور ، وتهيأ له المنصور يفرغ ما في نفسه كله لتهدأ ، فما كان أظمأه لهذا المجلس .

أمور كانت من أبى مسلم لم يرضها المنصور ، وأمور كانت من أبى مسلم للسفاح سكت عنه السفاح ولم تهدأ بها نفس المنصور ، وأمور كانت من أبى مسلم إلى المنصور انطوت عليها نفس المنصور تضطرب بها وتغلى .

فلقد كان أبو مسلم أصاب مرة مع عبد الله بن على نصلين احتفظ بهما لنفسه وتعلقت بهما نفس المنصور ، وحين جلس أبو مسلم بين يدى المنصور كان هذا أول شىء سأله عنه .

يرى ذلك المؤرخون وأرى معه شيئاً آخر ، فلقد كان المنصور يعلم أن أبا مسلم يحتفظ بهذين بين طيات ملابسه ، ويعلم أن هذين هما سلاحه الذى يدفع به عن نفسه حين يؤخذ أو حين يأخذ ، ولقد أحب المنصور ألا يترك له شيئا يدفع به أو شيئا يأخذ به ، من أجل هذا لم يبدأ حديثه إلا بهما ، ومن أجل هذا لم يأخذ فى الحديث قبل أن يجرده منهما ، فقال له المنصور : أخبرنى عن نصلين أصبتهما مع عبد الله بن على ؟ فقال أبو مسلم : هذا أحدهما ، فقال المنصور أرنيه ، فأنضاه أبو مسلم وناوله المنصور ، يريد أن يبالغ فى الأمن فأخذه المنصور ووضعه تحت فراشه وقد اطمأن ، ثم أقبل على أبى مسلم يعاتبه .

وكان بين السفاح وبين أبى مسلم أمر مضى سكت عنه السفاح ومات به ، لكن المنصور لم ينسه وعزاه عند ما وقع إلى تعالى أبى مسلم وطمعه فى الاستئثار بالأمر دونه وكان هذا الأمر أبعد من أن يكون

تعالياً من أبي مسلم ، وأبعد من أن يدخل في هذا الطمع الذي خاله أبو جعفر .

ولكن الملك حين يكون اغتصاباً لا تأمن أن تدخل عليه هذه الظنون ، ولا تأمن أن تستحيل هذه الظنون حقائق ، ولا تأمن أن تصبح هذه الحقائق عقائد ، يستباح من أجلها الدم وتستحل من أجلها النفوس .

فلقد كتب يوماً أبو مسلم إلى السفاح برأيه في الموات : هل يحل أخذه ؟ وكان مسلماً من المسلمين يرى أن يشير ، إن كان فيما يشير به نصحاً للمسلمين ، وكان مسلماً من المسلمين يرى أن تبصير الناس بدينهم واجب ، وردهم عن تعدى حدوده واجب .

من أجل ذلك كتب أبو مسلم يشير عليه ألا يأخذ هذا الموات ، إذ أن أخذه لا يحل .

وقال هذا أبو مسلم للسفاح مخلصاً في بعض الشيء ، معرضاً في بعضه ، فلقد كان أبو مسلم يحب أن يصد السفاح عن تملك ينضاف إلى ملكه وسلطانه ، ولقد فعل هذا باسم الدين حين وجد أن الدين يعينه ويسانده .

فهم هذا عنه السفاح فرد عليه بما يبطل حجته ، وما كان على حق ، وفهم عنه أبو مسلم ما يريد أن يصل إليه ولم يكن في يده ما يمنع به السفاح عن أن يفعل فسكت .

وانتهى السفاح إلى هذه وفي نفسه شيء من أبي مسلم ، ولكنه لم يكن يملك عندها أن يمضي في غيرها .

ولكنها بقيت فى نفس أبى جعفر ، وها هو ذا قد ملك أن يفعل ،

وما أثارها أبو جعفر ليكشف لأبى مسلم عن ذلك الجانب الدنيوى فيصغر هو ويكبر أبو مسلم ، وإنما أثارها ليجهل أبا مسلم فى دينه وليعلمه أنهم أدرى بالدين منه ، فيكبر هو ويصغر أبو مسلم ، ثم لينتهى به إلى أنه كان يطمع فى تسفيه رأيهم وتجهيلهم لتكون له الكلمة دونهم ، وبهذا تكون له الحجة عليه ، وكلاهما فاهم عن صاحبه مايراد ، ولكن ليس يملك أحدهما أن يديره على وجهه الصحيح ، فأبو مسلم كان صاحب محاولة يكشف لها وجهاً ويخفى وجها ، والسفاح ومن بعده أبو جعفر كانا يعلمان هذا الوجه الخفى فحقدا به على أبى مسلم تبادلاه الرأى فى هذا الوجه المكشوف ، وكان أمراً قد مر — كما قلت لك — ولكن فيه الدليل على انحراف أبى مسلم ، فلم يشأ أبو جعفر أن ينساه .

من أجل هذا قال أبو جعفر لأبى مسلم : أخبرنى عن كتابك إلى السفاح تنهاه عن الموات ، أردت أن تعلمنا الدين ؟

وما هى بكبيرة على نفس المسلم أن يستمع إلى أخيه المسلم يقول له رأيه ، فإن كان حقا أخذ به ، وإن كان غير حق رده عليه بالمعروف والقول الحسن .

ولكنها كانت كبيرة على نفس السفاح ، كما كانت كبيرة على نفس أبى جعفر ، لأن وراءها معنى آخر ، هو ذلك الذى أشرت اليه .

ويجيب السفاح أبا جعفر إجابة لا غبار عليها ، فيها مقنع وفيها

حجة ، ولكنها إن برأته من الأولى لا تبرئه من الثانية ، وما أراد أبو جعفر الأولى ولكنه أراد الثانية ؛ واستمع أبو جعفر إلى أبى مسلم يجيب : ظننت أن أخاه لا يحل فاما أتانى كتابه علمت أنه وأهل بيته معدن العلم .

وهكذا أجاب أبو مسلم ، وهكذا لم يعد أبو مسلم حجة عليه لأبى جعفر فى هذا ، إن كان أبو جعفر يريد هذا ؟

وسكت السفاح عن هذه لم يشأ أن يسترسل ، إذ كان همه هو أن يذكر أبا مسلم بما كان له وراء هذه ، وحسبه تلك التذكرة .

ثم انتقل أبو جعفر بأبى مسلم يذكره بما كان منه من مقدمه عليه فى طريق مكة ، فى ذلك الحج الذى مر بك ؟

وما كان أبو جعفر يريد من أبى مسلم جواباً يزيل ما فى نفسه من غضب وريبة ، ولكنه كان يقصد لا شك فى أن يذكره بماضيه منه .

ولكن أبا مسلم ظن الأمر عتاباً فأخذ يدلى بعذره ، وأخذ يقول لأبى جعفر ، كرهت اجتماعنا على الماء ، فيضر ذلك بالناس فتقدمتك للرفق .

وسكت أبو مسلم عند هذا ، وهو يظن أنه قال شيئاً ، وسكت أبو جعفر عن هذا ليعرف أبا مسلم أنه لم يقل شيئاً .

وأخذ أبو جعفر فى غيرها ، فقال لأبى مسلم : فقولك لمن أشار عليك بالانصراف إلى طريق مكة ، حين أتاك موت أبى العباس ، نقدم فنرى من رأينا ، ومضيت ، فلا أنت أقمت حتى ألحقك ولا أنت رجعت إلى ؟

ويجيب أبو مسلم : منعنى من ذلك ما أخبرتك من طلب الرفق بالناس ، وقلت : تقدم الكوفة وليس عليك من خلاف .

وكما سكت أبو جعفر فيما سبق سكت فى هذه ، ثم أخذ فى غيرها ، فقال لأبى مسلم : فجارية عبد الله أردت أن تتخذها ؟

ويجيب أبو مسلم : لا ، ولكنى خفت أن تضيع فحملتها فى قبة ، ووكلت بها من يحفظها .

وسكت أبو جعفر وأخذ فى غيرها ، وقال : فمراغمتك وخروجك إلى خراسان .

ويجيب أبو مسلم فيقول : خفت أن يكون قد دخلك منى شىء ، فقلت : آتى خراسان فأكتب إليك بعذرى فأذهب بما فى نفسك .

وسكت أبو جعفر عن هذه وأخذ فى غيرها ، فقال : فالمال الذى جمعته بخراسان ؟ ويجيب أبو مسلم فيقول : أنفقته بالجند تقوية لهم واستصلاحاً .

وسكت أبو جعفر عن هذه وأخذ فى غيرها : ألست الكاتب إلى تبدأ بنفسك وتخطب عمتى آمنة بنت على ، وتزعم أنك ابن سليط ابن عبد الله بن عباس ، فلقد ارتقيت لاأم لك مرتقى صعبا .

وهكذا أراد أبو جعفر أن يفصح عما فى نفسه ، وإن كان قد أفصح عنها بصمته ، فعقب بما عقب به بتلك الكلمة الحاكمة فى أمر أبى مسلم ، وما ترك له أن يجيب ، لأنه لم يكن يريد استصلاح ما بينه وما بين أبى مسلم ، وما ألقى عليه ما ألقى من أسئلة ليدلى أبو مسلم

يعذره ، ولكنه كان قاصداً أن يذكره بسيئاته ليشفى نفسه، وليعرف أبا مسلم أنه لم ينس شيئاً .

من أجل هذا لم يترك أبا مسلم ليجيب كما أجاب أولا ، بل مضى يفرغ ما عنده من أسئلة ليفرغ ما فى نفسه من غل ، فمضى يقول : وما الذى دعاك إلى قتل سليمان بن كثير مع أثره فى دعوتنا ، وهو أحد فتياننا ، قبل أن ندخلك فى شيء من هذا الأمر ؟

وكأنى بأبى جعفر قد أراد ان يستريح شيئاً ، وكأنى بأبى مسلم قد ظن أن أبا جعفر يريد أن يستمع إليه ، أو كأنى بأبى مسلم قد أراد أن يقول شيئاً ، فقال : أراد الخلاف وعصانى فقتلته .

(٢٣)

على هذا النحو جرى الحديث بين أبي جعفر وبين أبي مسلم ، يريد أولهما شيئاً ويظن الثاني منه شيئاً ، وكأني بأبي مسلم قد فطن آخر الأمر إلى ما يريد أبو جعفر بحديثه ، فملكته ثورة وملكته عزة واندفع يقول في يأس : لا يقال هذا لي بعد بلائي وما كان مني !

قال هذا أبو مسلم بعد ما عيل صبره ، وبعد ما تبين له أن أبا جعفر لا يريد غير أن يؤلمه ويشفي نفسه ، ولقد عجل أبو مسلم بنفسه ، واستعجل أبا جعفر في أمره ، ووجد أبو جعفر الفرصة مواتية إلى أن يقضي في أمر خصمه ويحمل عليه ، فقال له : يابن الخبيثة ، والله لو كانت أمة مكانك لأجزأت ، إنما عملت في دولتنا وبريحنا ، فلو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلا .

تلك الكلمة التي ملأت نفس أبي جعفر من قبل ، وصرح بها للسفاح ، فيما مر بك ، وها هو ذا يصرح بها لأبي مسلم ، وما كان أحرصه على أن يقولها له .

وعرف أبو مسلم ما وراء هذه الكلمة من أمر مبيت ، وعرف أنه مقتول فاستخزى ، ولان وضعف وهان ، وأخذ بيد أبي جعفر يقبلها ويعتذر إليه .

ولكن ما بال أبى مسلم لا يحب أن يموت كريماً ، وما باله يخشى الموت وقد نشأ على الموت ، وما باله لا يكون القائد الشجاع على فراش الموت كما عهدنا القواد الشجعان على فراش الموت ، وكأنه قد عز عليه أن يقضى بيد أبى جعفر ، وكان يحب أن يقضى أبو جعفر بيده هو ، وعز عليه أن يفقد الحيلة وهو الذى كان يحتال ، وعز عليه أن يضيق عليه وهو الذى كان يضيق على الناس ، وعز عليه أن يخرج من هذا الملك الذى بناه خروج من لا يد له فيه .

ولكنه كان على كل حال ضعيفا ذليلا لا تعطى آخرته ما أعطته سابقته : ولقد كان أبو مسلم يعلم — وما نظنه كان يجهل — أن أبا جعفر لن يلين له ، ولن يغنيه عنده تذلله ، فما باله لم يخرج من الدنيا كبيراً كما دخلها كبيراً .

وما رأينا أبا جعفر لان لخضوع أبى مسلم واستكانته ، بل رأيناه أمعن فى كبريائه وغطرسته ، فزاد المهموم الضعيف الذليل هما ، وزاده ضعفاً ، وزاده ذلة ، فقال له : ما رأيت كاليوم والله ، فما زدتنى إلا غضباً .

هنا صحا أبو مسلم إلى نفسه ، أو صحت فيه نفسه . وكنا نحب أن يصحو أبو مسلم إلى نفسه أو تصحو فيه نفسه قبل هذا ، ولكن تلك الصحوة لم تلم بأبى مسلم إلا متأخرة ، فإذا هو يقول للمنصور : دع هذا ، فقد أصبحت ما أخاف إلا الله تعالى .

عندها غضب المنصور غضبته الصريحة ، وكانت من قبل غضبة مكتومة ، فشتم وسب وصفق بيده على الأخرى ، فخرج الحرس

على أبى مسلم من وراء الستر ، فضربه أحدهم فقطع حمائل سيفه ، أعنى حمائل سيف أبى مسلم .

وحين رأى أبو مسلم الموت هلع ثانية ، ولان ثانية ، وضعف ثانية ، وأنسى أنه كان شجاعاً منذ حين قريب ، فالتفت إلى أبى جعفر يقول له : استبقنى لعدوك يا أمير المؤمنين .

كلمة جرت على لسان أبى مسلم لا تعطى لصاحبها إلا الخزى ولا تضعه إلا فى سلك المهينين .

ولقد شاء المنصور أن تكون آخر كلمة يخرج بها أبو مسلم من دنياه فى سمعيه هى تلك الكلمة التى رد بها أبو جعفر عليه : لا أبقانى الله إذن ، وهل لى أعدى منك !

رددها أبو جعفر مرة ومرة لتملأ سمع أبى مسلم ، وليخرج من الدنيا منكوباً فى نفسه ومنكوباً فى كرامته ومنكوباً فى جاهه ، وليمض وكل جارحة فيه تحمل هماً .

وكان كلما اعتورت السيوف أبا مسلم صاح : العفو ! العفو ! وأبو جعفر يصيح به ساخراً متهكما : يا ابن اللخناء ، العفو والسيوف قد اعتورتك !

وهكذا مضى أبو مسلم ذليلا على فراش الموت ، وقضى عليه أبو جعفر مشتفياً ، قد بلغ نفسه ما أرادت ، منتقماً لا يرده عن انتقامه راد ، مغتبطاً ينشد على جثة أبى مسلم .

زعمت أن الدين لا يقتضى   فاستوف بالكيل أبا مجرم
سقيت كأساً كنت تسقى بها   أمر فى الحلق من العلقم

وما صدق أبو جعفر نفسه حين أخذ أبا مسلم بجرائر لم ترتكب إلا باسمهم ، ولم تفعل إلا من أجلهم ، ولو أنه أراد أن يصدق نفسه لقال : إنه أخذه بجرائره معه لا بجرائره مع الناس .

ولكنه عدل الله وقصاصه يقع بالمسيء ، لا يعنينا كيف وقع وعلى أي صورة كان ، فيسلط الله الظالمين بعضهم على بعض ليبوءوا جميعاً بالإثم .

ولقد قتل أبو مسلم من عباد الله فأسرف . يروى الرواة أنه قتل فى أيامه نحواً من ستمائة ألف صبرا . كان هذا كله فى إقامة دولة وفى تمكين نفر من السلطان ، وما قتله الناس ولكن قتله من أراد أن يفرضهم هو على الناس .

وما لقى المنصور عناء كثيراً بعد قتل أبى مسلم ، ولقد صرف الناس عن التفكير فى مقتله بأيسر حيلة .

كان صحب أبى مسلم ، وهم نفر كانوا فى انتظاره بالباب ، فخرج إليهم رجل من رجال المنصور يخبرهم أن الأمير — يعنى أبا مسلم — يريد القائلة عند أمير المؤمنين ، ورأوا المتاع ينقل ، فظنوه صادقاً وانصرفوا .

وكان لأبى مسلم صحب آخرون يريدون أن يكسبوا من مقتل أبى مسلم ، فأعطاهم المنصور جوائزهم فسكتوا .

أما هذا الذى استخلفه أبو مسلم على ثقله — أعنى أبا نصر مالك بن الهيثم — فلم يكلف هو الآخر المنصور عسيراً ، فكان له معه حديث طريف سأحدثك به بعد قليل .

وقبل أن يفرض أبو مسلم العباسيين على الناس فرض هو سلطانه على الناس ، ملأهم منه خشية ، وملأهم منه رعباً ، وملأهم منه خوفاً ، لا يعرف حكومة يخضع هو لها مع الناس ، ولا يعرف ثمناً لأرواح الناس ، ولا يعرف وزناً لحقوق الناس ، فاجتمع الناس حوله يظنهم معه بقلوبهم وعقولهم ، وإذا هم معه بخوفهم وفزعهم ، ولما قتل أبو مسلم واطمأن الناس إلى أنه قتل ذهب عن الناس خوفهم وفزعهم واستقامت لهم قلوبهم وعقولهم .

دخل عيسى بن موسى على المنصور بعد أن فرغ المنصور من قتل أبي مسلم ، وكان عيسى ما كان صلة بالمنصور وجاهاً ، وكان يومها يتغدى عنده ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أين أبو مسلم؟ فقال المنصور : قد كان ها هنا .

فقال عيسى : قد عرفت نصيحته وطاعته ورأى الإمام إبراهيم فيه .

وما قال عيسى ما قال إلا وهو يظن أن أبا مسلم لا يزال حياً ، ولربما ظن أنه غير بعيد منهما يسمع .

فلقد كان لعيسى في أبي مسلم رأى غير هذا سارّ به المنصور وجاهره به ، حين كان أبو مسلم بعيداً عنهما ، ولقد عرف المنصور لعيسى رأيه في أبي مسلم ، سمعه منه سرّاً وجهراً .

وما كان يسمع المنصور من عيسى ما سمع حتى علم ما عند الرجل من فزع ، على جلالة قدره وقربه منه ، وحتى علم ما عند الرجل من خوف وهو فى ظله ، يخاف أبا مسلم ولا يخافه ، ويحذر أبا مسلم ولا يحذره، عندها أراد المنصور أن يرد على الرجل نفسه ولكن فى عنف ، وعندها أراد المنصور أن يرد على الرجل عقله ولكن فى تأنيب ، وعندها أراد المنصور أن يرد على الرجل خلقه ولكن فى تهكم ، فقال له : يا أحمق ، والله ما أعلم فى الأرض عدوا أعدى لك منه ، ها هو ذا فى البساط ، عندها استخزى عيسى من نفسه، ولكنه على هذا ملك أن يحمد الله ويشكره على ذهاب أبى مسلم مقتولا ، وذهاب رهبته وخشيته وفزعه وخوفه من قلبه .

وأراد المنصور بعد هذا أن يخبر ما عند الناس، فدعا إليه أبا إسحاق ، وكان قد بلغ المنصور أن أبا إسحاق هذا أشار على أبى مسلم أن يأتى خراسان، فقال له : أنت المانع عدو الله على ما أجمع عليه ؟ فكف أبو إسحاق عن الكلام وجعل يلتفت يمنياً وشمالا خوفاً من أبى مسلم .

وأحس المنصور بالخوف يملأ قلب الرجل فقال له : تكلم بما أردت فقد قتل الله الفاسق، وأمر بإخراجه . وما إن رآه أبو إسحاق حتى خر ساجداً لله فأطال، ورفع رأسه فقال : الحمد لله أمننى بك اليوم، والله ما أمنته يوماً واحداً منذ صحبته، وما جئته يوماً قط إلا وقد أوصيت وتكفنت . ثم رفع ثيابه الظاهرة فإذا تحتها ثياب أكفان جدد وقد تحنط .

وكان فى هذا عذر لأبى إسحاق ، استقدمه المنصور ليخبر ما عنده ثم ليقتله ، فإذا هو يرى ضعفه فيرحمه ، والتفت إليه يقول : استقبل طاعة خليفتك ، واحمد الله الذى أراحك من هذا الفاسق .

عرف المنصور بهذين ما عند الخائفين ، وأراد أن يعرف ما عند غيرهم ممن يملكون شيئاً من شجاعة ، وممن ملكوا شيئاً من خلاف قديم على أبي مسلم ، ليطمئن على ما فعل ، فما أحوج كل ذي صنع إلى قائل يقول له : أصبت ، لتهدأ نفسه ويطمئن قلبه .

وهكذا كان أبو منصور متعطشاً إلى هذه الكلمة متلهفاً ليسكن ويطمئن .

من أجل هذا دعا اليه جعفر بن حنظلة يسأله رأيه ، فقال له : ما تقول فى أمر أبى مسلم ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إن كنت أخذت من رأسه شعرة فاقتل ثم اقتل .

فقال له المنصور ، وقد استراح : وفقك الله .

فلما نظر جعفر بن حنظلة إلى أبى مسلم مقتولا قال : يا أمير المؤمنين ، عُدَّ من هذا اليوم خلافتك .

وكأن جعفر بن حنظلة كان يعرف ما عند المنصور ، وكأنه كان يستملى عن رأيه وعما فى نفسه ، فلقد كان هذا حقا ما يشغل المنصور ، وكان هذا حقا ما يحس به المنصور .

وهكذا مر مقتل أبى مسلم يسيراً سهلا ، وفرغ المنصور ممن حوله وأخذ يمد بصره إلى غيرهم .

فذكر أبا نصر مالك بن الهيثم ، هذا الذى كان أبو مسلم استخلفه وترك عنده ثقله ومتاعه ، لا يعنيه أبو نصر ولكن يعنيه ما عنده حتى يحوزه دونه ، وحتى لا يكون له به قوة ، فكتب إليه كتاباً على لسان أبى مسلم يأمره بحمل ثقله وما خلف عنده وأن يقدم ،

وختم المنصور الكتاب بخاتم أبى مسلم ، لا يعلم ما أوصى به أبو مسلم أبا نصر ، حين ودوعه الوداع الأخير .

وما إن رأى أبو نصر الخاتم تاما حتى علم أن أبا مسلم لم يكتب ، وحتى علم أن أبا مسلم قد قتل ، فقال : فعلتموها ! وانحدر إلى همذان ، وهو يريد خراسان .

وكما لم يستعص أبو مسلم على المنصور لم يستعص أبو نصر ، وكما احتال المنصور فى أمر أبى مسلم احتال فى أمر أبى نصر . وهكذا كان العصر عصر حيلة ، وكان الحكم يقوم نصفه على الخداع ونصفه على القوة ، يسبق الخداع القوة ، وقد تسبق القوة الخداع ، وكان أمر أبى نصر كأمر أبى مسلم تسبق الحيلة فيه القوة .

فلقد كتب المنصور لأبى نصر يعهد إليه بولاية شهر زور ، ثم كتب فى الوقت نفسه إلى واليه على همذان — وهو زهير بن التركى — يقول له : إن مر بك أبو نصر فاحبسه .

وكانت نادرة طريفة ، فقد سبق كتاب زهير إليه وأبو نصر عنده بهمذان ، وما كان لزهير أن يبطىء فى تنفيذ أمر المنصور ، فما إن قرأ الكتاب حتى قال لأبى نصر : قد صنعت لك طعاماً فلو أكرمتنى بدخول منزلى ؟

وما كان لأبى نصر أن يرد دعوة صديق لم يسبق منه إليه غدر ، ولم يك فى شك منه ، فلبى دعوته وحضر عنده ، فاحتجزه زهير وحبسه .

(٢٥)

ثم قدم صاحب العهد على أبى نصر بولايته على شهر زور ، ورأى زهير الكتاب كما رآه أبو نصر ، فما كان من زهير الا أن خلى سبيل أبى نصر فخرج .

وكان المنصور قد كتب كتاباً ثانياً لزهير بعد كتابه الأول يأمره فيه بقتل أبى نصر ، ووصل هذا الكتاب بعد خروج أبى نصر بيوم واحد ، فقال زهير للرسول : جاءنى كتاب بعهده فخليت سبيله .

وهكذا نجا أبو نصر من موت محقق ، لأن الحيلة لم تكن قد أحكمت ، ولكن أنا بصر هذا الذى فر ولم يع ، وعى حين فر ، فرأى أنه مضيق عليه ، ورأى أنه إن أمعن فى الفرار زاد من سخط المنصور عليه ولم يغن عن نفسه شيئاً .

من أجل ذلك عرج أبو نصر على المنصور يريد أن يعالج الأمر قبل استفحاله ، ورأى إن هو أدلى بعذر نجا ، لا سيا والخلاف بينه وبين المنصور ليس قديماً قدم الخلاف بين المنصور وأبى مسلم .

وتلقى المنصور أبا نصر غاضباً لا شك ، فقال له : أشرت على أبى مسلم بالمضى إلى خراسان .

وكان أبو نصر صريحاً جريئاً ، أراد أن يقول الحق فينجو به أو يهلك ، عزيزاً على الحالين ، فقال للمنصور ، نعم ، كانت له عندى أياد فنصحت له ، وإن اصطفانى أمير المؤمنين نصحت له وشكرته .

وهذا صنف من الناس لا يؤمن شره ، يؤجر فيعمل على خير وجه ، وهو يظن أن هذا إخلاص ، يقبله المستأجرون على علاته ، ليفيدوا على يديه شيئاً وليفوتوا على خصومهم الإفادة منه ، ولكنهم يعيشون معه على حذر ، ولن يكلفهم هذا كثيراً ، لأنه ليس من ذوى الرأى وإنما من ذوى الأجر ، والفرق بين الاثنين أن أولهما لا يرضى إلا إذا حققت له رأيه ، وثانيهما ترضيه إن حققت له أجره ، والأجر تعطيه غير مضار ، والرأى هو ما تعيش له وتعطى الأجر من أجله .

من أجل هذا عفا المنصور عن أبى نصر ، ومن أجل هذا الأجر عاش أبو نصر على باب المنصور ، ومن أجل هذا كان المنصور منه حذراً يريد أن يعرف ما عنده .

ولكن أبا نصر لم يجد شارياً يغلى فى الأجر ، فكفى المنصور هذا الحذر ، وكان عاملا بأجره ، ولا أقول مخلصاً .

فلقد خرج الراوندية على المنصور عام أربعين ومائة ، والراوندية من أهل خراسان ، كانوا على رأى أبى مسلم صاحب الدعوة ، ودخلوا عليه مدينته وأحاطوا به ، وكادوا يقتلونه ، وكان هذا يوما ينفع أبا نصر لو كان صاحب رأى ، ولكنه كان صاحب أجر ،

وليس بين الراوندية من يدفع له ما يدفعه للمنصور ، من أجل ذلك وقف على باب المنصور وهو يقول : أنا اليوم بواب لا يدخل أحد وأنا حى .

وما غابت هذه عن المنصور فنسى حذره ، وعلم أن المأجور لا رأى له ، وأنه قد وفى له .

ولقد تلقى المنصور بعد هذا اليوم مقاليد الحكم مطمئناً ، لم يسلم من خارجين ومناوئين ، ولكنهم كانوا قلة وكانوا دون أبى مسلم شهرة وحيلة وقوة ، من أجل ذلك لم يجهد المنصور بالخلاص منهم كثيراً ، وإنما كان أمرهم عليه يسيراً ، واستقامت الأحوال للمنصور ليحكم .

وكان المنصور رجلا آخر غير السفاح ، أو قل : إن السفاح كان رجلا خلق فى الفتنة ، واستقبل الفتنة ، وعاش بين الفتنة ، فلم يكن بد من أن يكون عنيفاً ، وأن يكون قاسياً ، وأن يكون غادراً ، فما تعرف الفتن غير هذه الأخلاق وما تكتب الغلبة للمنتصرين فى الفتن إلا بهذه الأخلاق .

من أجل هذا عنف السفاح وقسا وغدر ، وكان المنصور فى إثره ، مضى السفاح وخلف له ذيولا من الفتنة ، فكان لا بد للمنصور من أن يكون عنيفاً قاسياً غادراً هو الآخر .

ولكن هذه الذيول سرعان ما انقطعت ، وسرعان ما عادت الحياة أمناً .

من أجل هذا عنف المنصور وقسا وغدر صدر حياته ، ثم عاد رحيما شفوقاً أميناً سائر حياته .

ولكن المنصور كان ذا طبع ، وكان السفاح ذا طبع آخر ، وما نظنك غاب عنك موقف المنصور بين ابن هبيرة والسفاح حين حمل أمانه وغدر السفاح بأمانه، وكادت تكون بين السفاح والمنصور خصومة ، وما نظنك غاب عنك سعيه لتأمين بعض أنصار ابن هبيرة ، وما كان من السفاح معه ، فالمنصور لا شك كانت فيه رقة وكانت فيه استجابة للوفاء ، وما حمل غيرهما إلا مع تلك الضرورات التي تبيح المحذورات ، كما يقولون .

(٢٦)

وما سلم المنصور من أهله وما سلم من بقية للهاشميين ، فلقد شق عليه عصا الطاعة سليمان بن علي ، وأخوه عبد الله بن علي ، وكان خطبهما يسيراً .

فلقد زعم محمد بن عبد الله بن الحسن بن حسن بن علي بن أبي طالب أن المنصور بايعه ليلة تشاور بنو هاشم بمكة ، حين اضطرب أمر مروان بن محمد .

فلما ولي المنصور لم يكن همه إلا أمر محمد والمسألة عنه ، فذلك شيء ينقض عليه الملك من أساسه .

ولقد جد المنصور في طلب محمد ، نشر في المدن عيونه ، ونشر في المدن رجاله ، كلهم يجد في أثر محمد ، ومحمد يسعى سعيه خفية ، والمنصور يسعى سعيه علانية ، كل يريد أن ينال من أخيه ، يشتط المنصور مع قرابة محمد حيناً ويلين حيناً ، ولكنه على كل حال قتل منهم نفراً فأفظع في القتل ، وحبس منهم نفراً فأغلظ في الحبس ، وهكذا ارتد المنصور إلى الفتنة التي استقبلت السفاح ، فكاد أن يبلغ فيها مبلغ السفاح .

وفى عام خمس وأربعين ومائة ظهر محمد بن عبد الله بن الحسن بالمدينة ، ظهر فى وقته الذى واعد أخاه إبراهيم على الخروج معه ، والتف حوله نفر من أهله بالمدينة ونفر من شيعته ، وقصدوا السجن فأخرجوا من فيه ، وأتوا دار الإمارة فغلبوا عليها ، ثم أتى محمد المسجد فصعد المنبر فخطب الناس خطبة أحب لك أن تعيها ، إذ فيها بيان مما يريده محمد بالمنصور والبيت العباسى ، قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أما بعد ، فإنه قد كان من أمر هذا الطاغية عدو الله أبى جعفر ما لم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التى بناها — يعنى مدينته — معاندة لله فى ملكه وتصغيراً للكعبة ، وإنما أخذ الله فرعون حين قال : أنا ربكم الأعلى ، وإن أحق الناس بالقيام فى هذا الدين أبناء المهاجرين والأنصار والمؤمنين ، اللهم إنهم أحلوا حرامك وحرموا حلالك وأمنوا من أخفت وأخافوا من أمنت ، اللهم فأحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً .

أيها الناس ، إنى والله ما خرجت بين أظهركم وأنتم عندى أهل قوة ، ولكنى اخترتكم لنفسى .

والله ما جئت هذا وفى الأرض مصر يعبد الله فيه إلا وقد أخذ لى فيه البيعة .

وهكذا ظهر محمد هذا الظهور ، وهكذا أعلن محمد دعوته ، وهكذا بدا الخلاف القديم الذى كان بين الأمويين والهاشميين يأخذ شكلا جديداً ، فأصبح بين الهاشميين وبنى عمومتهم من العباسيين ،

وهكذا انفتح على الناس باب جديد من أبواب الجهاد سوف يدخلونه باسم الدين مرة ثانية ، ويقتلون ويشردون .

واستولى محمد على المدينة وأصبحت له ، فولى عليها من اختار ، وعلى قضائها من اختار ، وعلى شرطتها من اختار ، وعلى بيت السلاح من اختار ، وعلى ديوان العطاء من اختار .

وكان أهل المدينة قد استفتوا مالك بن أنس ، وقالوا له : إن فى أعناقنا بيعة لأبى جعفر ، فقال لهم : إنما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين .

فأسرع الناس إلى محمد يبايعونه ويخلعون بيعة أبى جعفر ، لم يتخلف منهم إلا قليل .

وكان فى الهاشميين رجل له بقية من عقل يزن الأمور بميزانها لا يغويه حقه على المطالبة بمحال معه سفك الدماء ، وقتل الأبرياء ، وتحميل الناس مالا يطيقون .

ولكنها كانت ثورة لا يستجاب فيها لمثل هذا الهاشمى إسماعيل ابن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وكان شيخاً كبيراً ، دعاه محمد إلى بيعته فقال : يابن أخى ، أنت والله مقتول فكيف أبايعك !

وكان إسماعيل يعرف ما عند محمد وما عند المنصور ، لا يعنيه

أن محمدا على حق ولكن يعنيه أن المنصور على قوة ، ولا يعنيه أن يتخلف عن بيعة ابن أخيه ، ولكن يعنيه ما سينصب على ابن أخيه والناس ، من أجل ذلك لم يعطه بيعته ، ومن أجل ذلك كشفت له عما سيناله ، وهو يعني ما سينال الناس معه .

وكانت لكلمة إسماعيل هذه فعلها في نفر من الناس ، فانصرفوا عن محمد ولكنهم كانوا قلة .

ولقد ثار الناس مع محمد حباً في الهاشميين شيئاً ، ولكنهم كانوا في حقيقة الأمر يصدرون عن هذا الضيق القار في نفوسهم ، فلقد شهدوا العباسيين عنفاً وعسفاً وشهدوا للعباسيين ظلماً وجوراً ، وما خلق الناس للعنف والعسف والظلم والجور ، وإنما خلقوا يبغون الأمن والطمأنينة والعدل والرفق ، هكذا علمهم الإسلام ، وهكذا أراد لهم الإسلام هذه الحياة .

فما إن وجد الناس محمداً يثور حتى ثاروا يؤيدونه لهاشميته في ظاهر الأمر ، ويؤيدونه لتلك المعاني التي ينشدونها في باطن الأمر .

ولكن الهاشميين غير إسماعيل كانوا يبغون ملكاً ، وكانوا يبغون ثأراً ، وكانوا يبغون انتصاراً ، فكانت ثورتهم غير ثورة الناس ، من أجل هذا كان إسماعيل بما قال غريباً عليهم ، فتسعى اليه حمادة بنت معاوية منكرة عليه ما قال ، فتقول له : ياعم ، إن إخوتي قد أسرعوا إلى ابن خالهم ، وإنك إن قلت هذه المقالة ثبطت الناس عنه فيقتل ابن خالي وإخوتي .

ولكن اسماعيل كان ذا رأى وليس ذا غرض ، فيأبى إلا ما قال أولا ، فتعدو عليه حمادة فتقتله .

وطير خبر ظهور محمد بالمدينة وما كان منه إلى المنصور ، فأرسل المنصور إلى عمه عبد الله بن على وهو فى الحبس ، وكان ذا رأى ، يستشيره : فأبى عبد الله أن يشير ، وقال : إن المحبوس محبوس الرأى ، فأخرجنى حتى يخرج رأيى .

فانظر إلى ما كان من المنصور لتعلم أن الأمر كان ملكاً يحرص عليه المنصور لنفسه ، وتحرص عليه المنصور لأهل بيته ، فلقد قال المنصور لعمه : لو جاءنى هذا الرجل حتى يضرب بابى ما أخرجتك .

ثم قال : وأنا خير لك منه ؛ ثم قال : وهو ملك أهل بيتك .

وما سمع عبد الله هذه الأخيرة حتى لان ونسى كل شيء ، فإذا هو يشير على المنصور ، وإذا المنصور يسمع له ، وإذا المنصور يمضى ما أشار به عليه عمه .

ولقد أشار عبد الله على المنصور أن يجثم على أكباد أهل الكوفة ، وهم شيعة أهل هذا البيت وأنصاره ، فمن خرج منها إلى وجه من الوجوه ، أو أتاها من وجه من الوجوه ، فليضرب عنقه ، كما

آشار عليه أن يستعين بأهل الشام ، وأن يجعل عليهم مسلم بن قتيبة .

وقبل هذا جرت بين المنصور وبين محمد كتب ، أشبه بتلك التي كانت بين يزيد والحسين .

وكما رغّب يزيد الحسين في المال والجاه والمناصب رغب المنصور محمداً في المال والجاه والمناصب ، وكما أبى الحسين على يزيد المال والجاه والمناصب أبى محمد على المنصور المال والجاه والمناصب ، وكما أصر الحسين على أن تكون الحرب بينه وبين يزيد ، أصر محمد على أن تكون الحرب بينه وبين المنصور ، وكما أخذت الحرب بين يزيد والحسين وأعطت أخذت الحرب بين المنصور ومحمد وأعطت ، وكما غدر بالحسين رجال وانفض عنه رجال ، غدر بمحمد رجال وانفض عنه رجال ، وكما قتل دون الحسين رجال قتل دون محمد رجال ، وكما قتل الحسين ونكل به قتل محمد ونكل به ، وكما قطع رأس الحسين وأرسل إلى يزيد ، كذلك قطع رأس محمد وأرسل إلى المنصور ، وكما قتل مع الحسين ناس قتل مع محمد ناس ، لكن المنصور زاد فأخذ أصحاب محمد الباقين فصلبهم صفين ، وبعد ثلاث ألقوا على مقابر اليهود ، ثم ألقوا بعد ذلك في خندق .

وبقي إبراهيم أخو محمد لا تقره أرض ، مرة بفارس ، ومرة بكرمان ، ومرة بالجبل ، ومرة بالحجاز ، ومرة باليمن ، ومرة

بالشام ، والمنصور جاد فى إثره يطلبه ، يظن إبراهيم أنه غالب بمن اجتمع حوله ، ويشغل المنصور بأمره فلا ينتفع بلحظة من دنياه ، ويقول : لا سبيل إلى هذا حتى أنظر رأس إبراهيم .

وكما نال المنصور من محمد نال من إبراهيم ، وكما ظفر برأس محمد ظفر برأس إبراهيم ، وكما قتل دون محمد ناس كثيرون قتل دون إبراهيم ناس كثيرون .

ويقتل إبراهيم خمدت ريح الهاشميين ، وصفا الملك خالصاً للعباسيين ، ومات هذا الخلاف الذى بذرت الجاهلية بذرته ، واحتضن الاسلام شجرته فترة من الزمن ، فسد فيها ما بين الناس ، وحمل بعضهم على بعض ، يساقون مرة يميناً ، ومرة شمالا ، وهم على المرتين مقتولون مشردون معذبون .

مات هذا الخلاف حرباً ليعيش رأياً ، تجتمع عليه بعض القلوب وبعض الرؤوس ، ليثير جدلا أو شيئاً شبيهاً بالجدل ، ولكنه لم يعد يقوى أن يثير تلك الحروب .

ومضت الدولة العباسية قدماً على أيدى خلفائها ، تبسط سلطانها ، وتمد رقعتها ، فإذا الدولة الإسلامية على امتدادها أمة واحدة ، يجمعها ملك واحد ، ويظلها سلطان واحد ، تهب فيها خلافات ،

ولكن وحدتها كانت أقوى من تلك الخلافات ، وتثور فيها فتن ، ولكن وحدتها كانت أقوى من تلك الفتن .

لكنها كما اجتمعت تفرقت ، وكما تضامت تشتت ، اجتمعت على أيدى العباسيين وتفرقت على أيدى العباسيين ، وتضامت باسم العباسيين ، وتشتت باسم العباسيين ، وكان مرد ذلك كله الى غياب الرأى ، وفقدان المشورة : وكان لذلك حديث طويل سوف أطالعك به فى كتب تتلو ، إن شاء الله تعالى .

طبـع بمطابع مؤسسة دار الشعب
٩٢ شارع قصر العينى ـ القاهرة
ت : ٢١٨١٠

رقم الايداع بدار الكتب ٢٠٨٢ – ٧٧
الترقيم الدولى – ١ – ٠٥٩ – ٢٦٩ – ٩٧٧ ISBN



